

# لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمُهُ

حِينَ تَنْقَلِبُ الْفِطْرَةُ وَتُحَاصِرُ الطَّهَّارَةُ  
وَيَهْبِطُ الْعَذَابُ عِنْدَ الشُّرُوقِ

تأليف : رَدَّاد السَّلَامِيُّ

لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمُهُ

حِينَ تَنقَلِبُ الْفِطْرَةُ وَتُحَاصِرُ الطَّهَارَةُ وَيَهْبِطُ الْعَذَابُ عِنْدَ الشُّرُوقِ

تأليف : رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

## مقدمة منهجية

### ليست حكاية شهوة عابرة

ليست قصة لوط عليه السلام في القرآن حكايةً معصيةً منفردة وقعت في زاوية معزولة من حياة قوم، وليست مجرد سجلٍ تاريخيٍّ لأمة ابتكرت لونها من ألوان الفاحشة ثم طواها العذاب؛ وإنما هي قصة مجتمع انقلب فيه ميزان الفطرة، حتى غدا القبيح مألوفًا، والمألوف مشروعًا، والمشروع محمياً بقوة الجماعة، وصار الطاهر غريباً في وطنه، والمستقيم متهمًا بين قومه، والداعي إلى النظافة الأخلاقية مهددًا بالإخراج؛ ولهذا فإن المأساة الكبرى في قصة قوم لوط لم تكن أنهم عصوا فحسب، بل أنهم أعادوا تشكيل الحس الاجتماعي على صورة المعصية، حتى أصبح وجود الأطهار بينهم مشكلةً ينبغي التخلص منها: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْتَغُونَ﴾.

وتلك لحظة مرعبة في تاريخ أي مجتمع: أن تتحول الطهارة من فضيلة يُقتدى بها إلى تهمة يُعير بها صاحبها، وأن يصبح البقاء في الجماعة مشروطًا بالتنازل عن الفطرة، وأن يُنظر إلى النقاء كأنه شذوذ عن الإجماع، بينما يصير الانحراف هويةً عامةً تحرسها الكثرة وتهاجم من يذكّرها بما فقدت. عندئذ لا تعود الخطيئة فعلاً يرتكبه بعض الناس في لحظة ضعف، بل تصبح نظاماً ثقافياً له منطقته ولغته وحراسه، ويغدو صوت النبي آخر نافذة يدخل منها الضوء إلى مدينة أغلقت أبوابها على الظلام.

ومن هنا تبدأ قصة لوط عليه السلام: من نبي يقف وحده تقريباً في مواجهة قوم لم يكتفوا بفعل المنكر، بل اجتمع فيهم إتيان الفاحشة، والإسراف في الشهوة، وقطع السبيل، وممارسة المنكر في المجالس، ومحاصرة الضيف، والسخرية من الطهارة، وتهديد المصلح بالطرد. إننا لا نقف أمام انحراف جسدي مجرد، بل أمام سقوط مرَّكَب أصاب الفطرة والأخلاق والمجتمع والضمير، فأفسد علاقة الإنسان بجسده، وعلاقته بالآخرين، وعلاقته بالحياء، وعلاقته بالحدود التي أقام الله عليها صلاح الحياة.

ولذلك لم يقدم القرآن قصتهم في موضع واحد مكتملة الحلقات، بل وزع مشاهدتها على عدد من السور؛ ففي سورة الأعراف نسمع المواجهة الأولى بين لوط وقومه، ويتقدم سؤال الفطرة الصادم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ

الْعَالَمِينَ﴾، وفي سورة هود ندخل بيت لوط في أشد لحظاته كرباً، ونرى كيف تحولت القرية كلها إلى خطر يطارد الضيوف، وفي سورة الحجر نرى مجيء الملائكة واندفاع أهل المدينة مستبشرين بما ظنوه فرصةً لشهوتهم، وفي سورة الشعراء يتجلى خطاب النبوة وهو يرد الرغبة إلى ميزان الخلق والفطرة، وفي سورة النمل تنكشف المفارقة القاسية حين يجعل القوم تطهر آل لوط سبباً لنفيهم، وفي سورة العنكبوت تتسع صورة الفساد لتشمل قطع السبيل وإتيان المنكر في النادي، بينما تعرض سور الصافات والذاريات والقمر مشاهد النجاة والعقوبة من زوايا توقظ القلب وتجمع بين العبرة والرهبة.

وسنمضي في هذا الكتاب وراء هذه المشاهد لا بوصفها أجزاءً متناثرة، بل بوصفها بناءً قرآنياً متكاملاً؛ فكل سورة تضع ضوءاً على ناحية، وكل تعبير يفتح باباً من الدلالة، وكل تكرار يحمل إضافةً لا يغني عنها الموضع الآخر. سننظر في ترتيب

الألفاظ، وحركة المشهد، واختلاف الخطاب، وما يقوله النص صراحةً، وما يفتحه نظمه وسياقه من آفاق التأمل، مع الحرص على ألا نجعل الآيات ما لا تحتل، وألا نملأ المساحات التي سكت عنها الوحي بأخبارٍ لا تثبت أو خيالاتٍ تفسد جلال القصة.

فالقرآن لم يذكر قصة لوط ليشيع فضولاً تاريخياً عن قرى غابرة، ولا ليقدم وصفاً تفصيلياً للفاحشة، وإنما ذكر منها ما يكشف قوانين السقوط وطرائق مقاومته ونهاية الإصرار عليه. لقد طوى أسماء الرجال وتفاصيل الأمكنة التي لا تقوم عليها العبرة، وأبرز كلمات المواجهة، وحركة المجتمع، وضيق النبي، وخيانة امرأته، وحرمة ضيفه، ولحظة الخروج ليلاً، وموعد العذاب عند الصبح؛ لأن هذه هي المعالم التي يبني بها القرآن وعي الإنسان، ويجعله يرى كيف تبدأ الكارثة في الضمير قبل أن تنتهي في الأرض.

وسنميز في هذه الرحلة بين الخطيئة الفردية والتحول الاجتماعي؛ فقد يقع الإنسان في الذنب وهو يعلم أنه ذنب، ويبقى في أعماقه بقية من الحياة تدفعه إلى الندم والستر والرجوع، أما قوم لوط فقد تجاوزوا ذلك إلى طورٍ أشد خطراً: طور المجاهرة والتواطؤ والدفاع والهجوم على الطاهرين. إن الذنب في هذه المرحلة لا يعود محتاجاً إلى عذر، بل يصنع لنفسه فلسفة، ولا يكتفي بأن يُمارس، بل يطالب بإسكات من ينكره، ولا يطمئن إلى وجوده حتى يطرد من بقي شاهداً على قبحه. ولهذا كان لوط عليه السلام ثقيلاً عليهم؛ لا لأنه يملك قوةً مادية تهددهم، بل لأن مجرد وجوده كان يذكّرهم بأن ما يفعلونه ليس طبيعياً ولا بريئاً، وأن وراء إجماع القرية ميزاناً أعلى لا يتغير بتغير أهوائها.

وسنقف كذلك أمام شخصية لوط عليه السلام بعيداً عن القراءة العاجلة التي لا ترى فيه إلا نبياً محاصراً يكرر النهي على قوم لا يستجيبون. إن في قصته بطولةً من نوع خاص: بطولة الإنسان الطاهر حين يعيش طويلاً داخل بيئة يطاردها القبح فطرته، فلا يسمح لكثرة المنحرفين أن تربك يقينه، ولا لطول الألفة بالمنكر أن يخفف في ضميره شناعته، ولا لوحده أن تدفعه إلى المصالحة معه. لقد بقي لوط أمةً أخلاقيةً قائمةً في وجه مجتمع كامل؛ يحمل ميزان الوحي حين اختلت الموازين، ويحرس معنى الإنسان حين تأكلت إنسانية القوم، ويفتح بيته للضيف في مدينة لم تعد تعرف للضيف حرمةً ولا للمستجير أماناً.

ولعل أشد مشاهد القصة إيلاًماً تلك اللحظة التي قال فيها: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾. ليست هذه كلمة شك في الله، ولا انهياراً في مقام النبوة، بل صرخة الفطرة المسؤولة حين ترى الحرمات مهددة وتبحث عن وسيلة مادية تدفع بها العدوان. كان لوط يريد قوةً يحجي بها ضيوفه، لا قوةً ينتقم بها لنفسه؛ وكانت غربته بالغةً حتى لم يجد في القوم رجلاً رشيداً يقف معه أو بقية مروءة تنهض لحرمة البيت. ثم جاءه الجواب من حيث لم يحتسب: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنَاصِلُوا إِلَيْكَ﴾؛ فحين انتهت قدرة الإنسان، ظهر الركن الشديد الذي كان يؤوي إليه وإن لم تره عيناه.

وسنقرأ القصة أيضاً من خلال إيقاع الزمن فيها. فقد ظل لوط يدعو وينذر، وبدا للقوم أن الأيام تمر وأن شيئاً لا يقع، حتى إذا جاء أمر الله صار الصبح موعداً لا يتأخر: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾. وما أعمق أن يكون الصبح—

وهو وقت الضوء والاستيقاظ وبداية الحياة—موعداً لانهاء قريةٍ أغلقت بصيرتها عن النور؛ فكان ذلك الصبح لم يأت ليوقظهم من نومهم، بل ليكشف أن نوم الضمير قد بلغ نهايته، وأن النور الذي رفضوا الاهتداء به صار شاهداً على هلاكهم.

ولن نتعامل مع العذاب بوصفه مشهداً منفصلاً عن مقدماته؛ فالحجارة التي نزلت في النهاية لم تكن بداية القصة، بل خاتمة مسار طويل من الإنذار والإصرار. قبل أن تُقلب القرية في الأرض، كان القوم قد قلبوا الموازين في نفوسهم؛ وقبل أن تمطر السماء عليهم حجارةً، كانوا قد أمطروا القطرة بالإهانات، وحاصروا الطهارة، وآمنوا للفاحشة طريقها، وسلبوا الغريب أمانه، وجعلوا مجالسهم ساحات للنكر. إن العقوبة في المنظور القرآني لا تنفصل عن العدالة؛ تأتي بعد البيان، وتؤخر حتى تستنفذ الدعوة حجتها، ثم تقع عندما يغدو بقاء المجتمع على حاله إنتاجاً متصلاً للفساد والعدوان.

أما امرأة لوط فليست شخصية هامشية في القصة؛ إنها تكشف أن القرب المكاني من النبوة لا يصنع إيماناً، وأن العيش في بيت الصالح لا ينجي قلباً اختار أن يكون مع القوم. لم تكن الخيانة المذكورة خيانة عرض، فبيوت الأنبياء منزهة عن ذلك، وإنما كانت خيانةً للدين والموقف والرسالة؛ عاشت إلى جوار النور ولم تفتح له قلبها، وارتبط جسدها ببيت لوط بينما كان ولاؤها الباطن للمجتمع الذي يقاومه. ومن هنا

غدت مثلاً قرآنياً يتجاوز زمانها: ﴿كَانَتْ تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ نَفَاتَهُمَا فَلَمْ

يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾. فليس النسب جسراً يعبر به الإنسان إلى النجاة، ولا القرب من الصالحين بديلاً عن الاختيار الشخصي والإيمان الصادق.

هذا الكتاب، إذن، ليس محاكمةً لأناس مضوا بقدر ما هو كشفٌ للقوانين التي أهلكتهم؛ لأن أسماء الأقسام تتغير، لكن طرائق سقوطهم تتكرر. حين تُفصل الحرية

عن المسؤولية، والرغبة عن الهداية، والقوة عن الرحمة، والمجتمع عن ميزان الحق، تبدأ الطريق نفسها وإن اختلفت أشكالها. وحين يصبح المنكر معتاداً، ثم محمياً، ثم مهاجماً لمن يتركه، تكون المدينة قد قطعت مسافةً بعيدةً عن إمكانية الرجوع، وإن ظلت أسواقها عامرةً وبيوتها قائمة.

ومع ذلك لن يكون مقصدنا أن نحول القصة إلى مادة للفظاظة أو التشهير أو ازدراء الناس؛ فالقرآن حين يسمي الفاحشة لا يعلم المؤمن القسوة على الخلق، وإنما يعلمه الوضوح في الحق، والرحمة بالإنسان، ومقاومة الفعل الذي يهدم إنسانيته. وليس من هدي النبوة أن يستعلي الطاهر بطاعته أو يغلق باب التوبة في وجه مذنب؛ فقد ظل لوط يدعو قومه ويحاورهم حتى جاءت اللحظة التي أخبرته فيها الملائكة أن أمر الله قد قضي، والوضوح الأخلاقي لا يناقض الرحمة، كما أن الرحمة لا تعني تغيير أسماء الأشياء أو تسوية الطاعة بالمعصية؛ بل الرحمة الحقيقية أن يدعى الإنسان إلى النجاة قبل أن يستحكم فيه ما يهلكه.

سنمضي، إذن، مع لوط عليه السلام من لحظة البلاغ الأولى إلى لحظة الخروج الأخيرة؛ من سؤال يهز الفطرة: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ؟﴾، إلى اعتراف بالعزلة: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾، إلى صرخة المسؤولية: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾، إلى طمأننة السماء: ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾، إلى الأمر بالرحيل: ﴿فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾، ثم إلى الصبح الذي أغلق باب القرية وفتح للعبرة باباً لا يغلق.

إنها رحلة في معنى الفطرة حين تُصان وحين تُشوّه، وفي معنى النبوة حين تقف بلا نصير ظاهر، وفي معنى البيت حين يصير ملاذاً للطهارة أو منفذاً للخيانة، وفي معنى المجتمع حين تتحول كثرته إلى ستار للباطل، وفي معنى العقوبة حين تأتي بعد حلم

طويل، وفي معنى النجاة حين يخرج المؤمن من المكان الذي أحبه لأن البقاء فيه صار إقامةً على حافة الهلاك.

وسنكتشف، في نهاية الرحلة، أن قصة لوط ليست قصة مدينةٍ قُلبت فقط، بل قصة موازين انقلبت أولاً؛ وأن العذاب الذي شوهه في الأرض سبقه عذاب أخفى في الضمائر: أن يفقد الإنسان قدرته على الاشتماز من القبح، وأن يرى النقاء استفزازاً، والنصيحة عدواناً، والحدود سجنًا، والرغبة إلهًا يُطاع. فإذا بلغ المجتمع هذه الحال، لم يعد السؤال: متى يسقط بناؤه؟ بل: متى يظهر في الخارج ذلك السقوط الذي اكتمل في داخله؟

ومن هنا نبدأ.

## الفصل الأول

### لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: غَرِيبُ الْفِطْرَةِ فِي مَدِينَةِ الْإِنْقِلَابِ

لا يبدأ القرآن قصة لوط عليه السلام من المدينة التي واجه فيها قومه فحسب، بل يفتح لنا نافذةً على المنبع الإيماني الذي خرج منه هذا النبي؛ فقد ظهر لوط أول ما ظهر في السياق القرآني مصداقاً لإبراهيم عليه السلام، حين كان إبراهيم يقف وحده تقريباً في وجه مجتمع الوثنية، ويحطم ببرهان التوحيد أصناماً استقرت طويلاً في العقول قبل أن تستقر في المعابد: ﴿فَأَمِّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. وهذه الإشارة الوجيزة ليست تفصيلاً عابراً؛ فهي تكشف أن لوطاً تربى منذ البدء على الانحياز إلى الحق حين يكون الحق وحيداً، وأنه عرف الإيمان لا بوصفه موروثاً اجتماعياً مريحاً، بل بوصفه موقفاً يكلف صاحبه أن يخالف قومه ويخرج من طمأنينة المألوف إلى مشقة الطريق.

كان أول ما تعلمه لوط في صحبة الإيمان أن الكثرة ليست دليلاً، وأن شيوع الباطل لا يمنحه شرعية، وأن المرء قد يكون وحده في أعين الناس، لكنه ليس وحيداً ما دام قائماً في جانب الله. وهذه التربية المبكرة هي التي ستفسر لنا ثباته بعد ذلك؛ فمن آمن لإبراهيم حين كذبه القوم، يستطيع أن يقف بين قوم آخرين لا يجد فيهم رجلاً رشيداً، ومن عرف الهجرة إلى الله يستطيع أن يغادر وطن العادة حين يصبح الوطن سجنًا للفطرة، ومن رأى النار توقد لإبراهيم بسبب كلمة التوحيد لن يستغرب أن يرى الطرد يُطلب لآل لوط بسبب الطهارة.

لقد بدأ لوط إذن مؤمناً في زمن الغربة، ثم صار نبياً يحمل غربته الخاصة. وكأن الله أعده منذ أول الطريق للمهمة التي ستوكل إليه؛ لأن مواجهة مجتمع متماسك حول انحرافه تحتاج إلى نفس لا تستمد يقينها من موافقة الناس، ولا تقيس الحق بعدد الواقفين معه، ولا تتراجع حين ترى أن القرية كلها في صف والمنزل المؤمن وحده في الصف الآخر.

ولم يكن لوط عليه السلام غريباً لأنه جاء قومه بلغة لا يفهمونها، ولا لأنه دعاهم إلى أمر لم تعرفه الفطر، بل كان غريباً لأنهم هم الذين ابتعدوا عن أصلهم الإنساني، ثم جعلوا بعدهم هو المعيار الذي يقيسون به قرب الآخرين أو غربتهم. حين يفسد المجتمع طويلاً، تنقلب معاني الكلمات؛ فيصبح المستقيم شاذاً عن الجماعة، ويغدو المنحرف منسجماً مع الواقع، ويرى الناصح مزججاً لأنه يوقظ في الناس ما حاولوا تخديره، ويُعامل الطاهر كأنه يحمل إلى المدينة خطراً، مع أن الخطر الحقيقي يسري في أوصالها.

وهذا من أعجب قوانين الانقلاب الأخلاقي: أن الباطل لا يكتفي بأن ينتشر، بل يعيد تعريف الطبيعي وغير الطبيعي، والمقبول والمرفوض، والانتماء والغربة. فإذا استولى على المجال العام، لم يعد يسأل نفسه عن موقعه من الحق، بل طالب الحق بأن يبرر وجوده أمامه. وهكذا صار لوط، وهو يدافع عن أصل الفطرة، محتاجاً في نظر قومه إلى أن يفسر لماذا لا يشبههم؛ بينما لم يشعروا هم بحاجة إلى أن يفسروا كيف خالفوا الخلق الذي أقام الله عليه حياة الإنسان.

قال تعالى:

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ.

يبدأ المشهد باسم لوط منصوباً: ﴿وَلَوْطًا﴾؛ أي واذكر لوطاً، واستحضر موقفه، ولا تمر به مروراً سريعاً، فإن في وقفته المنفردة أمام قومه معنى يستحق أن يبقى حاضراً في ذاكرة المؤمنين. ليست العبرة في معرفة اسمه فحسب، بل في استدعاء شجاعته، وغرته، وصبره، ووضوحه، وفي رؤية المسافة الهائلة بين نبي يحمل ميزان الوحي وقوم يحملون سلطان العادة والشهوة.

ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾. ونسبة القوم إليه—مع شدة خلافه لهم—تحتفظ بخيط الرابطة الإنسانية التي لم يقطعها لوط من جهته. هم قومه الذين يعرفهم ويعيش بينهم ويريد إنقاذهم، وليسوا مادةً للكرهية المجردة. إنه لا يخاطبهم من برج التعالي، ولا يفرح بسقوطهم، وإنما يواجههم لأنهم قومه، ولأن النبي لا يرى انحراف مجتمعه شأنًا لا يعنيه. إن الانتماء الحق لا يعني السكوت عن خطايا القوم، بل قد يكون أصدق وجوه الانتماء أن تواجههم بالحقيقة التي يكرهون سماعها؛ فالذي يجامل المجتمع في أسباب هلاكه ليس أرحم به ممن يوقفه، وإن بدا الأول لناً وبدا الثاني شديداً.

وكان أول ما صدر عن لوط سؤال يهز ما بقي في النفوس من فطرة:

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ؟﴾

ليس السؤال سؤال جاهل يريد جواباً، وإنما هو استفهام إنكاري يحمل التعجب والتوبيخ والاستنهاض. كأنه يقول لهم: كيف استطعتم أن تعبروا كل هذه المسافة

من وضوح الفطرة إلى هذا الفعل؟ كيف أمكن للإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وأودع فيه الحياء، وجعل له عقلاً يميز وحدوداً تصون، أن يقصد الفاحشة ويأتيها مطمئناً إليها؟

وفي اختيار الفعل ﴿تَأْتُونَ﴾ حركة مقصودة. لم يقل: أتعون في الفاحشة، لأن الوقوع قد يوحي بزلّة عارضة أو ضعف مباغت؛ وإنما قال: ﴿تَأْتُونَ﴾، والإتيان توجه وقصد ووصول. إنهم يتحركون إلى الفعل بإرادة، ويطلبونه، ويجعلونه مقصداً، فلا نحن أمام إنسان باغته شهوته ثم عاد نادماً، ولا أمام ذنب محاط بالنجل، بل أمام قوم جعلوا الفاحشة وجهةً يتجهون إليها.

ثم لم يسمّ القرآن الفعل في الجملة الأولى، بل وضعه ابتداءً تحت حكمه الأخلاقي: ﴿الْفَاحِشَةَ﴾. والفحش في أصل الدلالة مجاوزة الحد في القبح، فالشيء لا يوصف بأنه فاحش لمجرد كونه خطأً يسيراً، وإنما حين يتجاوز قدره ويظهر قبحه ويشتد. والتعريف في ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ يضيف على اللفظة وضوحاً وثقلاً؛ كأن الفطرة السليمة تعرفها ولا تحتاج قبل إنكارها إلى جدال طويل في الاسم.

وهنا يعلننا القرآن أن أول ضحايا الانحراف الأخلاقي قد تكون اللغة نفسها؛ لأن الخطيئة حين تريد أن تستقر في المجتمع تبحث عن اسم يخفف قبحها، وتنزع عنها الوصف الذي يكشف حقيقتها، ثم تعيد تقديمها في صورة أقل إثارة للضمير. أما الوحي فيعيد الأشياء إلى أسمائها الموزونة بميزان الله، لا ليغلق باب الرحمة على أحد، ولكن لأن العلاج يبدأ من التشخيص، ولأن الإنسان لا يتوب من فعلٍ أقنع نفسه بأنه لا يحمل خلاً.

ثم جاءت العبارة التي جعلت فعل قوم لوط علامةً فارقةً في تاريخ الانحراف:

﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

لم يقل: ما فعلها أحد قبلكم، بل قال: ﴿مَا سَبَقَكُمْ﴾. والسبق كلمة تستعمل غالباً في ميادين التنافس؛ يتسابق الناس إلى المجد، ويتقدم بعضهم بعضاً في العلم والشجاعة والخير. لكن قوم لوط قلبوا دلالة السبق كما قلبوا الفطرة؛ فصاروا متقدمين في الاتجاه الخطأ، وافتتحوا للبشرية طريقاً في الانحراف لم تُعرف عن أمة قبلهم على هذا الوجه من الشيوخ والمجاهرة والتواطؤ.

إنها ريادة مظلّمة؛ فالإنسان لا يمدح لمجرد أنه جاء بما لم يأت به السابقون، وإنما يُنظر إلى الجهة التي تقدم نحوها. قد يكون الجديد اكتشافاً يوسع المعرفة، أو عدلاً يرفع الظلم، أو إحساناً يداوي الحياة، وقد يكون باباً لم يكن مفتوحاً من الشر ففتحه صاحبه، ثم ترك من بعده آثار أقدامه على الطريق. ليست القيمة في أن تسبق، بل في الشيء الذي سبقت إليه، وفي المصير الذي تقود الناس نحوه.

ومن دقة التعبير أن الآية قالت: ﴿سَبَقَكُمْ بِهَا﴾، فكأن الفاحشة ميدان بلغوه قبل غيرهم، أو راية حملوها في مقدمة المنحرفين، أو طريق أسرعوا إليه فلم يجدوا أمامهم آثار أمة تسبقهم. وما أقسى أن ينظر الإنسان خلفه في التاريخ فلا يجد قدوة في شره؛ وأن يصبح هو القدوة السيئة لمن بعده، فيحمل وزر الفعل ووزر الطريق الذي سهّله للآخرين.

وليس دلالة الآية أن البشرية قبلهم لم تعرف قط انحرافاً فردياً خفياً قد يقع من بعض الأشخاص؛ فهذا مما لا يقطع به النص، وإنما الذي يقرره بوضوح أن قوم لوط

كانوا أول من عرف عنهم هذا الفعل بوصفه ظاهرةً قوميةً معلنةً متواطئاً عليها، لها حضورها في المجتمع حتى نسبت إليهم وصاروا بها سابقةً بين العالمين. فالقرآن يتحدث عن قوم، وعن قرى، وعن رجال يهرعون، وعن مجالس يمارس فيها المنكر، وعن جماعة تهدد بيت النبوة وتطالب بإخراج الأطهار. نحن أمام انتقال المعصية من الخفاء الفردي إلى البنية الاجتماعية.

وهذا الانتقال هو موضع الخطر الأكبر؛ لأن الخطيئة الفردية، على شناعتها، تظل محصورةً في صاحبها ما دام المجتمع ينكرها والفطرة تستقبحها والضمير يؤنبه عليها، أما حين تكتسب حماية الجماعة، فإنها تبدأ بإنتاج بيئة كاملة تعين عليها وتطارد من يرفضها. يضعف الحياء لأن الجميع يفعلون، ويصمت المتردد لأن الإنكار صار مكلفاً، ويتحول الصمت مع الزمن إلى قبول، ثم يتحول القبول إلى دفاع، ثم يصبح الدفاع عدواناً على كل من يذكر بالميزان الأول.

ولهذا عقب القرآن على الفعل بوصف القوم:

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

إن كلمة ﴿قَوْمٌ﴾ هنا شديدة الدلالة؛ فالتحليل لم يعد محصوراً في أفراد متفرقين، بل صار طابعاً جمعياً يصف القوم من حيث هم جماعة. لقد صنعوا من الإسراف مزاجاً عاماً، كل واحد يقوي الآخر، وكل فعل يخفف قبح الفعل الذي يليه، حتى نشأت كلمة اجتماعية لا تعود إلى ميزان خارجها، بل تستمد شرعيتها من اتفاق أفرادها.

أما الإسراف فهو تجاوز الحد. والشهوة في أصلها ليست شراً؛ فقد خلقها الله لحكمة، وجعل لها طريقاً يصون الفرد ويحفظ الأسرة ويمد الحياة. لكن الشهوة حين

تفصل عن الحكمة التي خلقت لها، وعن الحد الذي ينظمها، تتحول إلى قوة استهلاك لا تعرف الاكتفاء؛ تبدأ بطلب اللذة ثم تنتهي بإعادة تشكيل الإنسان على صورة جوعها. وكل شهوة لا يحكمها ميزان أعلى منها لا تتوقف عند حد ذاتي؛ لأنها كلما أُسبعت على غير هدى طلبت لونا آخر من التجاوز، حتى يصبح الإنسان خادماً لما كان ينبغي أن يكون أداة في يده.

ولذلك لم يقل القرآن: بل أنتم قوم مشتهون، لأن أصل الميل ليس موضع الإدانة، وإنما قال: ﴿مُسْرِفُونَ﴾؛ فقد تجاوزوا بالميل حده، ووضعوه في غير موضعه، وجعلوه حاكماً بدل أن يكون محكوماً. إن المشكلة ليست في وجود الرغبة داخل الإنسان، بل في انقلاب ترتيب القوى داخله؛ حين تنزل الهداية عن عرش القيادة، ويُقضى العقل والحياء، وتصعد الشهوة لتصدر الأحكام وتعيد تعريف الصواب والخطأ بحسب ما تريد.

وفي سورة الشعراء يأتي الخطاب أكثر تفصيلاً:

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٠﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٠١﴾﴾

هنا لا يقف القرآن عند وصف ما يفعلون، بل يكشف ما يتركون. فالانحراف لا يُعرف دائماً بالفعل الذي يتجه إليه صاحبه فقط، وإنما بالطريق الصحيح الذي يهجره أيضاً: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾. هناك خلق، وهناك رب، وهناك أزواج، وهناك حكمة تربط هذه العناصر؛ فالعلاقة المشروعة ليست ترتيباً

اجتماعياً اعتبارياً، بل جزء من بنية الخلق التي جعل الله فيها السكن والمودة والنسل وتكامل الذكر والأنثى.

والتعبير بـ ﴿خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ﴾ يعيد الشهوة إلى سياق الربوبية؛ فالجسد ليس مادةً سائبةً بلا غاية، والإنسان لم يخلق نفسه حتى يجعل ذاته مرجعاً مطلقاً لما يفعل بها، والرغبة لا تمنح الفعل مشروعيته لمجرد أنها تطلبه. إن الذي خلق أعلم بما يصلح خلقه، والذي أودع الميل هو الذي شرع له طريقه، وليس في شريعة الله حرب على الإنسان، بل حماية له من أن تستعبده بعض قواه حين تنفصل عن بقية كيانه.

ثم ينتقل الوصف من ﴿مُسْرِفُونَ﴾ في الأعراف إلى ﴿عَادُونَ﴾ في الشعراء. والإسراف تجاوز في المقدار والحد، والعدوان تجاوز إلى ما لا يحل. وكأن التعبيرين يرسمان معاً طبيعة الفعل: هو إسراف لأن الشهوة خرجت عن ميزانها، وعدوان لأنها لم تبق شأناً ذاتياً منعزلاً، بل مست الآخرين، وهددت أمن الطريق، وامتدت إلى الضيوف، وحولت المجتمع إلى مساحة لا يأمن فيها الإنسان على حرمة.

إن هذا البعد مهم لفهم القصة؛ لأن بعض القراءات تختزل فساد قوم لوط في رغبة شخصية، بينما يظهرهم القرآن جماعةً معتديةً لا تقف عند حدود الاختيار الفردي. لقد كانوا يأتون الرجال، ويقطعون السيل، ويأتون في ناديتهم المنكر، ويهرعون إلى بيت لوط يريدون ضيوفه. فالفاحشة عندهم متصلة بالقوة والإكراه وإهدار الكرامة، وليست مجرد ميل مختبئ في النفس. إنها شهوة مسلحة بسلطان الجماعة، ولهذا كانت تهديداً للأمن الإنساني كله.

ومع ذلك لم يتوجه لوط إليهم بالسب المجرد، ولم يبدأ بلعن أشخاصهم، بل واجه الفعل، وكشف قبحه، وأعادهم إلى ميزان الخلق. وهذه سمة الخطاب النبوي:

وضوح لا يذوب في المجاملة، ورحمة لا تتحول إلى تزوير، ومواجهة للفعل لا تنزع عن المدعو إنسانيته ولا تغلق أمامه باب العودة. كان لوط يريدهم أن يفيقوا، ولو لم يكن يرجو لهم الهداية لما كرر القول، ولما احتمل العيش بينهم، ولما ظل يدفع عنهم الحجة بالحجة حتى استنفدوا فرص النجاة.

لكن القوم لم يناقشوا برهانه، ولم يقدموا جواباً أخلاقياً يردون به وصف الفعل، بل انتقلوا من مواجهة الحجة إلى مواجهة صاحبها؛ وهذه علامة العجز القديم: حين يعجز الباطل عن إبطال الكلمة، يحاول إسكات الفم الذي نطق بها.

قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

يقول القرآن: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾، ثم يذكر ما ليس جواباً في الحقيقة، بل تهديداً. لم يقولوا إن لوطاً أخطأ في وصف الفعل، ولم ينفدوا منطقه، وإنما قالوا: أخرجوه. وحين تضيق الحجة بالمجتمع المنحرف، يتسع فيه السجن والمنفى؛ فالطرد هنا ليس ردّاً على الدعوة، بل إعلان عجز عن احتمالها.

وتأمل الانتقال من المفرد إلى الجمع: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ ثم ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾. لم يعد لوط وحده مستهدفاً؛ بل كل من ينتمي إلى بيت الطهارة. فالاستبداد الأخلاقي لا يكتفي بإسكات صاحب الكلمة، بل يريد اقتلاع البيئة الصغيرة التي تحفظ المعنى المخالف، حتى لا يبقى في المدينة نموذج يثبت أن الحياة على وجه آخر ممكنة.

ثم جاءت سخريتهم: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾. وما أعجب أن يصدق الخصم في وصف الفضيلة وهو يريد بها الذم! لقد شهدوا لآل لوط بالطهارة، لكنهم قالوها مستهزئين، فكشف كلامهم عن انقلاب عميق في الذوق؛ فالطهارة التي ينبغي أن تستدعي الاحترام أصبحت في عرفهم سبباً للإقصاء. لم يقولوا: إنهم يعتدون علينا، أو يسلبون أموالنا، أو يهددون أمننا؛ إنما كانت جريمتهم أنهم يتطهرون.

وصيغة ﴿يَّتَطَهَّرُونَ﴾ قد تحمل في سخريتهم معنى التكلف؛ كأنهم يقولون: يدّعون الطهر ويتنزهون عنا. وهكذا يحاول المنحرف أن يحول ثبات المستقيم إلى استعلاء شخصي؛ كي يهرب من السؤال الذي يطرحه عليه وجوده. فلو اعترف بأن صاحبه يرفض الفعل طاعةً لله وحفظاً للفطرة، لا يضطر إلى مراجعة نفسه؛ لذلك يصوره متكبراً متعاليًا، ثم يجعل من هذا التصوير مبرراً لعداوته.

وهنا تبلغ غربة لوط ذروتها؛ فقد كان يدعو قومه إلى تطهير حياتهم، فإذا بهم يجعلون التطهر تهمة، وكان يريد بقاءهم على الفطرة، فإذا بهم يطالبون بإخراج من بقي عليها. إنه انقلاب لا يقع في لحظة واحدة؛ يبدأ بفعل تستقبحه النفوس، ثم يكثر فاعلوه، ثم يعتاده النظر، ثم تخفت لغة الإنكار، ثم يشعر الطاهر بأنه مضطر إلى الصمت، ثم يأتي اليوم الذي يضطر فيه إلى الاعتذار عن طهارته، فإذا رفض كان جزاؤه الطرد.

لكن لوطاً لم يساوم على بقاءه. لم يقل لهم: سأخفف وضوح الكلمة كي تسمحوا لي أن أعيش بينكم، ولم يبحث عن صياغة ترضي الفاحشة والطهارة معاً، لأن الأنبياء يعلمون أن الوطن الذي لا يُسمح للحق فيه بأن يُقال يتحول إلى منفى، وأن البقاء بثمن خيانة الرسالة ليس نجاةً بل لون آخر من الهلاك.

وقد كان في وسعه—بمنطق الراحة البشرية—أن ينكمش داخل بيته، وأن يقول: أصلحت نفسي وأهلي وليس عليّ شأن الآخرين، لكنه كان نبياً، والنبوة لا تعترف بالطهارة المنعزلة حين يغرق المجتمع في الفساد. ليست الطهارة أن تنجو وحدك من المستنقع ثم تترك الناس يغرقون، بل أن تحمل إليهم جبل النجاة، وإن سخروا منك، وأن تشهد للحق بينهم، وإن جعلوك غريباً.

ومن هنا فإن غربة لوط ليست غربة ضعف، بل غربة معيار، لم يكن أقل إنسانية من قومه لأنه خالفهم، بل كان الإنسان الذي حفظ معنى الإنسانية حين أضاعوه. ولم يكن خارج عصره، بل كان متصلاً بالحقيقة التي لا يبطئها مرور العصور. إن الحق لا يشيخ لأنه قديم، والفطرة لا تفقد حجيتها لأن قوماً ترمدوا عليها، والخلق لا يُعاد بناؤه كلها رغبة الشهوة في طريق جديد.

كان لوط وحده في ظاهر المشهد، لكن قومه هم الغرباء عن أصل الخلق؛ وكانوا كثرةً في شوارع المدينة، لكنه كان يحمل وحده معنى بقائها؛ فلما خرج منها بأمر الله، لم يبق فيها ما يستحق أن تبقى به. وهذه حقيقة تكرر في قصص القرآن: قد تظن المدينة أن الصالح عبء عليها، وأن إخراجها يطهر فضاءها منه، ثم تكتشف—بعد فوات الأوان—أنه كان آخر سبب يمسك عنها العذاب.

إن وجود المصلح بين قومه ليس علامة رضا عنهم، ولكنه فرصة؛ وصوته الذي يزعمهم ليس خطراً على راحتهم، بل جرس إنقاذ قبل السقوط. فإذا أسكتوا الصوت، وطردهوا الطاهر، وأغلقوا آخر منافذ المراجعة، لم ينتصروا عليه كما توهموا، بل أتموا الحجة على أنفسهم.

وهكذا ينتهي المشهد الأول من قصة لوط عليه السلام: نبي يقف في جانب الفطرة، وقوم يقفون في جانب الشهوة، وحجة تواجهها رغبة في الطرد، وطهارة

أصبحت تهمة. غير أن الانقلاب لم يبلغ بعد أشد صوره؛ فما يزال في القصة بيت  
سيُحاصر، وضيف سيُطلبون، ونبي سيضيق صدره حتى يقول: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.  
هناك، عند أبواب البيت، سينكشف أن الفساد الذي بدأ في الرغبة قد تحول إلى  
عدوان، وأن المدينة التي سخرت من الطهارة لم تعد تطيق وجود حرمة لا تنتهك.

## الفصل الثاني

حِينَ تَصِيرُ الْفَاحِشَةُ نِظَامًا اجْتِمَاعِيًّا  
مِنْ ذَنْبِ الْفَرْدِ إِلَى تَوَاطُؤِ الْقَوْمِ

لا يبلغ المجتمع أقصى درجات الفساد حين يقع بعض أفرادهِ في المعصية؛ فالبشر عرضة للضعف، والنفوس تتعثر، والذنوب جزء من اختبار الإنسان في هذه الحياة، ما دام في القلب ضمير يؤنب، وفي المجتمع ميزان يفرق بين المعروف والمنكر، وفي الطريق باب مفتوح للرجوع. وإنما يبلغ المجتمع حافة السقوط حين لا تعود المعصية حادثةً يستحي منها صاحبها، بل تتحول إلى ثقافةٍ تسندُها الجماعة، وعادةٍ تحرسها الكثرة، ومنكرٍ يُمارس في العلن، ثم تُوجَّه القوة الاجتماعية كلها إلى إسكات من يرفضه.

وقوم لوط لم يكونوا مجرد مجموعة من العصاة يعيش كل واحد منهم خطيئته بعيداً عن الآخرين، وإنما كانوا قوماً صنعوا من الفاحشة رابطةً بينهم، وتواطؤوا على حمايتها، واجتمعوا على مقاومة من ينكرها، حتى لم يعد الفساد فعلاً يمارسه الفرد، بل صار مناخاً يحيط بالمدينة كلها. ولهذا تكرر وصفهم في القرآن بصيغة الجماعة: ﴿قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، و﴿قَوْمٌ عَادُونَ﴾، و﴿قَوْمٌ نَجْهَلُونَ﴾، و﴿قَوْمٌ سَوَاءٌ فَاسِقِينَ﴾؛ لأن المرض تجاوز الضمائر المنفردة إلى الشخصية الجمعية التي تشكلت بها القرية.

وقد جمع القرآن ملامح هذا التحول في قول لوط عليه السلام:

﴿أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ

قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

هذه الآية لا تعرض ثلاث خطايا متفرقة فحسب، بل ترسم بنية مجتمع انهارت فيه الدوائر التي تحفظ إنسانية الإنسان؛ فهناك فساد في الشهوة، وفساد في الطريق، وفساد في المجلس. أي إن الخلل قد أصاب الخاص والعام، والجسد والمكان، والعلاقة الفردية والحياة الجماعية. لم يتركوا للإنسان مساحةً يأمن فيها: فإن خلا بنفسه طارده الشهوة، وإن سافر قطعوا عليه الطريق، وإن دخل مجالسهم وجد المنكر معلناً لا يستحي أصحابه منه.

﴿أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾

يتقدم الاستفهام المشدد مرة أخرى، كأن لوطاً عليه السلام لا يزال يحاول استدعاء الفطرة من تحت ركام العادة: ﴿أَنْتُمْ﴾. إن وقع السؤال نفسه يحمل دهشةً ممزوجةً بالإنكار؛ فالفعل عنده مناقض لبداية الخلق إلى الحد الذي يجعل وقوعه على هذه الصورة الجماعية أمراً مثيراً للتعجب.

والخطاب لا يصف خاطراً عبثاً يجول في النفس، ولا ميلاً لم يتحول إلى فعل، وإنما يواجه ممارسةً مقصودة: ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾. واللام الداخلة على الفعل تزيده تأكيداً، كأن القوم حاولوا بالتكرار والمجاهرة أن يطمسوا الحقيقة، فجاء الخطاب ليضعها أمامهم بلا مواربة.

وليس كل ما يتحرك في باطن الإنسان حجةً له، ولا كل ما يجد في نفسه يتحول بمجرد وجوده إلى حق؛ فالإنسان ليس مجموعة دوافع عمياء، وإنما هو كائن مكلف، له عقل يزن، ووحى يهدي، وإرادة تختار. وامتحانه لا يقع فقط فيما يحب ويكره، بل في الطريقة التي يدير بها ما يحب وما يكره وفق مراد الله. وقد تكون مجاهدة الميل الذي لا يرضي الله من أصدق مراتب العبودية؛ لأن قيمة الطاعة تظهر حين يملك الإنسان القدرة على المخالفة ثم يختار ربه.

لكن قوم لوط لم يقفوا عند وجود الدافع، بل جعلوا الشهوة مرجعاً يعلو على الخلق، ثم أخرجوا الفعل من خفاء الأفراد إلى إعلان الجماعة. وهنا انتقلت القضية من امتحان شخصي يمكن لصاحبه أن يقاومه إلى فساد عام يتكاثر بالتقليد والتشجيع والتواطؤ.

### ﴿وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ﴾

ثم يجيء الخلل الثاني: ﴿وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ﴾.

والسبيل في حياة الناس أكثر من تراب يمتد بين قريتين؛ إنه شريان التواصل بين المجتمعات، وطريق التجارة، وموضع عبور المسافر والغريب وصاحب الحاجة. فإذا فسد الطريق، انكششت الحياة داخل الخوف، وانقطعت المصالح، وصار خروج الإنسان من موطنه مغامرةً بكرامته وأمنه.

وقد ذكر المفسرون في قطعهم السبيل معاني متقاربة؛ فمنها اعتراض المارة والاعتداء عليهم، ومنها أن فعلهم المنكر كان سبباً في انقطاع الناس عن المرور بديارهم، ومنها أنهم قطعوا سبيل النسل بما اختاروه من غير الطريق الذي أقام الله

عليه امتداد الحياة. وهذه المعاني يجمعها أصل واحد: أنهم كانوا يهدمون إمكان العبور؛ عبور الإنسان آمناً في الأرض، وعبور الحياة من جيل إلى جيل، وعبور الفطرة إلى غايتها التي خلقت لها.

والجمع بين إتيان الرجال وقطع السبيل يكشف أن فاحشهم لم تكن شأناً منزوياً لا يتجاوز أصحابه، بل امتدت إلى أمن الآخرين. فحين تتحول الشهوة إلى عدوان، لا يعود السؤال عن رغبة صاحبها فقط، بل عن حرمة من تقع عليه، وعن طمأنينة الغريب، وعن الحق العام في طريق لا يطارَد فيه المسافر ولا يُهدد.

لقد كان المسافر في الحضارات القديمة ضعيفاً بعيداً عن أهله، قليل النصير، لا يعرف وجوه القوم ولا مسالك النجاة. وكانت ضيافته من علامات المروءة وكرم الأخلاق؛ فمن أكرم الغريب فقد أثبت أن إنسانيته تتجاوز روابط الدم، ومن اعتدى عليه فقد كشف أن القوة عنده انفصلت عن الشرف. وقوم لوط لم يهدروا حكماً شرعياً فحسب، بل أسقطوا واحدةً من أقدم حرمان الاجتماع البشري: حرمة المستجير وحق العابر في الأمان.

ومن هنا نفهم لماذا سيحتل الضيوف مركزاً بالغ الأهمية في بقية القصة؛ فالملائكة لم يأتوا لوطاً في صورة ضيوف لمجرد تحريك الأحداث، وإنما أصبح مجيئهم اختباراً كاشفاً يكشف للقوم أنفسهم أقصى ما وصلوا إليه. لقد جعل الله الجريمة التي اعتادوها تواجههم في صورة امتحان أخير: هل بقي في المدينة رجل رشيد يردهم؟ هل بقي فيهم احترام لحرمة البيت؟ هل يستيقظ حياؤهم حين يعلون أن هؤلاء ضيوف نبيهم؟ لكن الذي سيظهر أنهم فقدوا كل حاجز، وأن فساد الشهوة قد التحم بفساد المروءة وفساد القوة.

## ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾

أما الدائرة الثالثة فهي النادي: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾.

والنادي هو المجلس الذي يجتمع فيه القوم، ومنه الندوة؛ فهو ليس زاوية خفية أو مكاناً هامشياً، بل فضاء الحضور الاجتماعي، حيث تُصنع صورة الجماعة عن نفسها، وتقرر فيها المقبولات والمرفوضات، ويتعلم الصغير من الكبير ما الذي ينبغي أن يفعل وما الذي ينبغي أن يُستحيا منه.

وحين يدخل المنكر إلى النادي لا يبقى خطيئة فردية؛ لأن المجلس يمنحه عيونا كثيرة تشهده دون إنكار، وألسنة تضحك له أو تشجعه، ونفوساً ناشئة تتعلم بالتكرار أن ما تراه معتاد لا بأس به. إن أخطر ما يفعله المنكر المعلن ليس وقوعه في اللحظة نفسها، بل قدرته على تربية الحس العام؛ فالعين التي ترى القبيح مرة قد تنفر منه، فإذا رآته كل يوم خف نفورها، ثم ألفتها، ثم ربما دافعت عنه لأن الاعتراف بقبحه بعد الألفة يصبح اتهاماً للذات وللجماعة.

ولم يقل القرآن: وتأتون المنكر في ناديتكم، بل قال: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾، فتقدم ظرف المكان في نسق الآية ليشد الانتباه إلى بشاعة وقوع المنكر في موضع الاجتماع. فالمشكلة ليست في المنكر وحده، بل في أنه أصبح مشهداً عاماً، وفي أن النادي الذي كان ينبغي أن يتداول فيه الناس مصالحهم ويحفظوا به أعراف المروءة صار ساحة لتبادل الجرأة على حدود الله.

وإذا صار المنكر مادة المجلس، نشأت بين الجالسين شراكة نفسية؛ حتى من لم يباشر الفعل قد يسهم في صنع بيئته بالضحك، أو السكوت الراضي، أو التشجيع، أو

حماية الفاعل، أو السخرية ممن ينكر. وهكذا يتوزع وزر الفساد على شبكة واسعة: فاعل يبدأ، ومتفرج يعتاد، وصامت يخشى، ومشجع يزنّ، وصاحب قوة يحمي، وجماعة تهاجم المصلح. وفي النهاية يبدو المجتمع كله كأنه شخص واحد يتحرك في اتجاه واحد. وقد رويت في تفسير المنكر الذي كانوا يأتونه في مجالسهم صور متعددة من الأفعال

القييحة والسخرية والاعتداء، غير أن القرآن أبقى اللفظ جامعاً: ﴿الْمُنْكَرُ﴾؛ ليكشف أن النادي فقد وظيفة الإنكار ذاتها. فالمنكر ما تنكره الشرائع والفطر والعقول السليمة، فإذا أُعلن في مجلس القوم ولم يتحرك فيهم نكير، فقد أصبحت الجماعة جهازاً لتخدير الضمير بدل إيقاظه.

وهذا هو الفارق بين مجتمع يوجد فيه الفساد ومجتمع أصبح الفساد هويته. لا يخلو مجتمع من مذنبين، لكن سلامته تقاس بما بقي فيه من مقاومة داخلية للذنب: هل يُسمع صوت الناصح؟ هل يستحي المخطئ؟ هل تحمي حرمة الضعيف؟ هل تستطيع الفطرة أن تقول: هذا منكراً؟ فإذا ماتت هذه الوظائف، لم تعد المشكلة عدد الخطايا، بل انهيار المناعة التي كانت تمنعها من التحول إلى وباء.

### من المجاهرة إلى صناعة الإجماع

إن الخطيئة تضعف في الضوء إذا بقي الضوء ضوءاً، لكنها قد تستولي على الضوء نفسه، فتستخدم الإعلان لإعادة تشكيل الوعي. يبدأ الأمر بأشخاص يجاهرون بما كان الناس يستترون منه، ثم تُقدّم المجاهرة بوصفها شجاعة، ويُصور الإنكار بوصفه اعتداءً، ويُدفع المترددون إلى الصمت، وبعد زمن يبدو الصمت كأنه إجماع.

لكن الإجماع الذي تصنعه الرهبة أو العادة ليس برهاناً أخلاقياً. قد تتفق قرية كاملة على أمر ولا يتغير بذلك حكمه عند الله، وقد يقف رجل واحد في جانب الحق

فلا تنقص الحقيقة بوحده. ولولا ذلك لما كان لإرسال الأنبياء معنى؛ فإنهم جاءوا في كثير من الأحيان إلى مجتمعات مستقرة على عقائدها وعاداتها، ليخبروها أن استقرار الباطل لا يجعله حقاً، وأن طول الممارسة لا يحول الانحراف إلى فطرة.

لقد حاول قوم لوط أن يجعلوا كثرتهم حجة صامتة؛ فهم القوم، وهم أصحاب القرية، وهم الذين يحددون ما يجري في ناديتهم، أما لوط وآله فقلة يمكن إخراجها. لكن القرآن حطم هذه المعادلة؛ فسمي الأكثرية مسرفةً وعاديةً وجاهلةً وفاسقةً، وسمي القلة ناجيةً طاهرة. وكأن القصة تقول: لا تزن المواقف بعدد أصحابها، بل بموضعها من الحق، فقد تضيق القرية برجل واحد بينما تنسع له السماء.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ﴾

قال لوط عليه السلام في سورة النمل:

﴿أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ﴾.

كان الوصف في الأعراف ﴿مُسْرِفُونَ﴾، وفي الشعراء ﴿عَادُونَ﴾، وهنا ﴿بَجَهْلُونَ﴾. وليست هذه أوصافاً مترادفةً تكرر بلا إضافة، بل كل واحد منها يكشف طبقةً من طبقات السقوط.

هم مسرفون لأنهم تجاوزوا الحد.

وهم عادون لأن تجاوزهم امتد إلى الحرمات والآخرين.

وهم يجهلون لأنهم عطلوا مقتضى العلم والعقل والحلم، وسلكوا سلوك الجاهل الذي لا تضبطه حكمة ولا يردعه رشد.

والجهل في التعبير القرآني ليس دائماً نقص المعلومات؛ فقد يعرف الإنسان حقيقة الفعل من جهة الخبر، لكنه يتصرف تصرف من لا يعلم حين تغلبه شهوته ويغيب عنه تقدير العاقبة. وقد يكون المرء واسع المعرفة بتفاصيل الدنيا، لكنه جاهل بنفسه، جاهل بربه، جاهل بالمصير، جاهل بالحدود التي إذا هدمها هدم معها طمأنينته.

ومن أفسى أنواع الجهل أن يظن الإنسان أنه تحرر، بينما هو ينتقل من عبادة الله إلى عبودية الرغبة؛ وأن يتوهم أنه اتسع، بينما تضيق نفسه حتى لا ترى في الآخر إلا مادةً لشهوتها؛ وأن يحسب إسقاط الحدود تقدماً، وهو يسقط الحواجز التي تحمي إنسانيته من الاقتراس.

ولذلك ارتبطت قصة قوم لوط بالرشد وضده؛ فقد قال لوط في ساعة الكرب:

﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾. لم يكن يبحث عن رجل يعرف المعلومات، بل عن إنسان يملك من الحكمة والمروءة ما يجعله يقف في وجه اندفاع الجماعة. كان يحتاج إلى ضمير واحد لم تبخله الكثرة، وعقل واحد لم تسكره الشهوة، وصوت واحد يقول للجموع المسرعة: قفوا، إن للبيوت حرمة، وللضيف حقاً، وللإنسان حداً لا يجوز أن ينتهك.

لكن المجتمع الذي يتواطأ طويلاً على المنكر يطرد رجاله الرشداء أو يسكتهم، حتى تأتي اللحظة التي يحتاج إليهم فيها فلا يجدهم.

تحدي العذاب: حين يموت الخوف

بعد أن واجههم لوط بهذه الحقائق لم يكن جوابهم توبةً ولا تفكيراً، بل قالوا:

﴿إِنَّا نَبْغِ الْعَذَابَ مِنَ اللَّهِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

هذه الكلمة أشد من الفعل نفسه؛ لأنها تكشف أن الحواجز الداخلية قد تهدمت إلى درجة جعلتهم يستعجلون العقوبة ساخرين. كان يكفهم أن يقولوا: لا نصدقك، لكنهم نقلوا المكابرة إلى تحدٍّ: هات العذاب.

ولا يستعجل العذاب من يتصور حقيقته؛ وإنما يقول ذلك من حجت العادة قلبه عن رؤية العاقبة، أو من توهم أن تأخر العقوبة دليل على استحالتها. لقد عاشوا زمناً يفعلون ما يفعلون، وتشرق عليهم الشمس، وتهطل الأمطار، وتجري الحياة، فلم يروا في الإهمال رحمةً وفرصةً للرجوع، بل قرؤوه قراءةً مقلوبة: لو كان لوط صادقاً لعوقبنا. وهكذا يتحول حلم الله في نظر المغرور إلى حجة على الأمان، مع أنه حجة عليه؛ فكل يوم يُمهّل فيه هو باب توبة جديد، وكل إنذار يسمعه فرصة، وكل مرة لا يؤخذ فيها مع قدرته عليه زيادة في إقامة الحجّة. لكن القلب حين يستحكم فيه الغرور لا يرى في المهلة إلا فراغاً، ولا يفهم أن الصمت الذي يسبق العاصفة ليس عجزاً.

وقولهم: ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ محاولة لقلب موضع الاتهام؛ فبدل أن يفحصوا صدقهم مع فطرتهم، جعلوا لوطاً مطالباً بإثبات صدقه بإزالة العذاب. والأنبياء لا يملكون العذاب ولا يتصرفون في مواعده؛ إنما ينذرون، والله يحكم متى تنتهي المهلة. لكن المستكبر يريد أن ينقل النقاش من الحجّة القائمة أمامه إلى حدث غيبي يطلب وقوعه فوراً، لا طلباً لليقين، بل فراراً من مقتضى اليقين. وعند هذه اللحظة لم يجد لوط عليه السلام إلا أن يرفع حاجته إلى ربه:

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.

إنه دعاء قصير، لكنه مثقل بسنوات المواجهة. لم يقل: رب انتقم لي، بل قال:  
﴿انصُرْنِي﴾؛ لأن القضية لم تكن خصومةً شخصيةً بينه وبينهم، بل صراعاً بين رسالة  
وفساد. ثم وصفهم بـ ﴿المُفْسِدِينَ﴾، فجمع في هذه الكلمة ما تفرق في أفعالهم؛ فقد  
أفسدوا الفطرة، وأفسدوا الطريق، وأفسدوا المجلس، وأفسدوا ميزان المجتمع، وحاولوا  
أن يخرجوا الطاهرين من أرضهم.

والفساد أوسع من المعصية؛ فالعاصي قد يضر نفسه، أما المفسد فينقل أثر عصيانه  
إلى غيره، ويصنع بيئةً تنو فيها الخطيئة، ويمنع أسباب الإصلاح من العمل. ولهذا لم  
يطلب لوط النصر عليهم منذ اللحظة الأولى؛ ظل يدعوهم وينذرهم ويقيم الحجّة، فلما  
اختاروا الإفساد المنظم، وتحذوا العذاب، وأغلقوا أبواب الرجوع، جاء الدعاء إيذاناً  
بأن مرحلةً من القصة توشك أن تنتهي.

زوجة لوط: الاختراق من داخل البيت

غير أن الفساد لم يكن يحيط ببيت لوط من الخارج وحده؛ فقد كان له داخل  
البيت عين وقلب موصولان بالقوم. كانت امرأة لوط في بيت النبوة جسداً، لكنها لم  
تكن من أهلها في ميزان الإيمان. قال تعالى:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾.

وقال سبحانه:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ

عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَفَتَانَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ

الدَّاخِلِينَ﴾.

ولم تكن خيانتها خيانة فراش—وحاشا بيوت الأنبياء من ذلك—وإنما خانت عهد الإيمان، ولم تصدق بالرسالة، وكانت على صلة بموقف القوم ضد زوجها. عاشت قريباً من الوحي، ورأت صبر لوط وطهره، وسمعت إنذاره، لكنها اختارت انتماءها النفسي إلى البيئة التي خرجت منها.

وهنا تكشف القصة عن حقيقة شديدة: قد يكون المجتمع المنحرف حاضراً داخل البيت نفسه، لا بسلطان الظاهر، بل بولاء القلب. وقد يعيش الإنسان إلى جوار نبي ولا ينتفع بنوره؛ لأن الهداية لا تنتقل بالجاورة، والإيمان لا يُورث بمجرد القرابة، والنجاة لا تقوم على العنوان الذي يسكنه المرء، بل على الحقيقة التي يسكنها قلبه.

كانت امرأة لوط دليلاً على أن التواطؤ الاجتماعي قد يكون أقوى عند بعض النفوس من أخص روابط الأسرة؛ فقد آثرت موافقة القوم على تصديق النبي الذي تعيش في بيته. وحين يأتي وقت الفصل لن ينفعها أنها كانت تحت عبد صالح؛ لأن القرب الذي لا يصحبه إيمان يزيد الحجّة ولا يصنع النجاة.

المجتمع الذي يستهلك آخر فرصه

بهذا اكتملت صورة المدينة قبل وصول الملائكة: فاحشة معلنة، وطريق مهدد، ونادٍ يحتضن المنكر، وقوم يتحدون العذاب، وبيت نبوة تحيط به العيون، وامرأة في

داخله لم تفارق القوم بقلوبها، لم يعد الفساد حادثاً يمكن عزلها، بل صار شبكةً تمتد من الشارع إلى المجلس إلى العائلة.

ومع ذلك لم يقع العذاب بعد؛ لأن عدل الله لا يعاجل القوم قبل تمام الحجة، ولأن في القصة اختباراً أخيراً سيخرج ما في نفوسهم إلى العلن كله. سيأتي إلى لوط ضيوف لا يعرف حقيقتهم، وستنتشر أخبارهم في المدينة، وسيهرع القوم إلى بيته كما لو أن الفاحشة موعد احتفال، وستكون تلك الليلة مراتهم الأخيرة.

في تلك الليلة لن يعود الحديث عن فكرة يناقشونها، بل عن باب يريدون اقتحامه، وضيوف يريدون انتهاك حرمة، ونبي يقف بجسده بين بيته وبين مدينة كاملة. هناك سيصبح المنكر الذي مورس في النادي حشداً يتحرك في الطريق، وسيظهر أن المجتمع حين يطيل التواطؤ على الفاحشة ينتهي إلى لحظة لا يستطيع فيها فرد واحد أن يوقف اندفاعه، لأن الجميع يجر الجميع نحو الهاوية.

وكان الملائكة قد بدأوا طريقهم إلى لوط، بعد أن مروا بإبراهيم عليه السلام يحملون في زيارتهم بشارةً ونذارة: بشارةً بامتداد حياة في بيت إبراهيم، ونذارةً بانتفاء حياة قرى أغلقت أبوابها أمام الفطرة. وبين البيت الذي استقبل الضيوف بالكرم والوجل، والمدينة التي ستستقبل خبرهم بالشهوة والعدوان، سيقم القرآن واحدةً من أبلغ المفارقات الأخلاقية في القصة كلها.

### الفصل الثالث

ضُيُوفُ إِبْرَاهِيمَ وَرُسُلُ الْعَذَابِ  
بَيْنَ بَيْتٍ يَفْتَحُ أَبْوَابَهُ لِلْضَّيَافَةِ وَمَدِينَةٍ تَفْتَحُ أَبْوَابَهَا لِلْعُدْوَانِ

لم تبدأ رحلة الملائكة إلى قرى لوط من عند باب لوط عليه السلام، بل مروا قبل ذلك بإبراهيم عليه السلام، حاملين في زيارتهم خبرين متقابلين: خبر حياة ستولد، وخبر قرية توشك أن تنتهي؛ بشارة بسلام في بيت النبوة، ونذارة بعذاب على قوم أفسدوا فطرتهم واستنفدوا فرص الرجوع. وكأن الملائكة يحملون في الطريق وجهين من وجوه أمر الله: رحمة تُحيي بيتاً، وعدلاً يطوي مجتمعا أبى إلا الفساد.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ

حَنِيدٍ •

جاءوا إلى إبراهيم في صورة ضيوف، ولم يعرف أول الأمر أنهم ملائكة، فاستقبلهم بما تستقبل به الفطرة الكريمة من نزل بساحتها: رد السلام، وأسرع إلى إكرامهم، وجاءهم بالطعام من غير إبطاء ولا تكلف سؤال. لم يقل لهم: من أنتم؟ ولماذا جئتم؟ ولم يستقيمون؟ بل سبق كرمه استفساره، وتحركت مروءته قبل أن تكتمل معرفته بهم.

وفي قوله: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ﴾ تصوير لسرعة المبادرة؛ كأن الزمن بين دخول الضيوف وإحضار الطعام قد طوي. وهذه طبيعة الكرم الصادق: لا يجعل الضيف واقفاً عند أبواب الأسئلة، ولا يشعره بأنه عبء يحتاج إلى تبرير حضوره، وإنما يرى مجيئه فرصةً لبذل الخير.

ثم لم يأتهم بطعام يسير يؤدي به رسم الضيافة، بل جاء ﴿بِعَجَلٍ حَنِيدٍ﴾؛ لحم مشوي معدّ بعناية. وفي سورة الذاريات: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ جَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ﴾. والروغان ذهاب في خفةٍ ومن غير أن يشعر الضيف بأنه يُتعب مضيفه؛ فهو لم يعلن أنه ذاهب لإعداد الطعام، ولم يجعل من عطائه منّةً مسموعة، بل انسل إلى أهله ثم عاد بما يكرم به زواره.

ذلك هو بيت إبراهيم: سلام، ومسارعة، وطعام، وأمن. أما قرى لوط التي يقصدها الرسل بعده، فستكون على الطرف المقابل: خبر الضيف فيها يوقظ الشهوة، ومجيء الغريب يحرك العدوان، والبيت الذي ينبغي أن تحوطه الحرمة سيصبح محاصراً. ومن خلال هذا التقابل لا يعرض القرآن أدبين مختلفين في الضيافة فحسب، بل يكشف فارقاً بين حضارتين أخلاقيتين: حضارة ترى الغريب أمانة، وأخرى تراه فريسة؛ بيت يتقرب إلى الله بإكرام من لا يعرف، ومدينة تندفع لانتهاك حرمة من لم يؤذها.

حين خاف إبراهيم من ضيوفه

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا

إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ﴾.

وُضِعَ الطعام، لكن الأيدي لم تمتد إليه. وهنا انتقل المشهد في نفس إبراهيم من الطمأنينة إلى التوجس؛ فقد كان امتناع الضيف عن الطعام يحمل في أعراف الناس ما يدعو إلى الرية. وكان خوفه هادئاً داخلياً لم يندفع به إلى إساءة معاملتهم:

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾؛ أحس بالخوف في نفسه وأخفاه، حتى كشفوا له حقيقتهم

وطمأنوه: ﴿لَا تَخَفْ﴾.

لكن الطمأنة جاءت متصلةً بخبر ثقيل: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ﴾. لم يقولوا في

هذه الآية ابتداءً: أرسلنا إلى لوط، وإنما قالوا: ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ﴾؛ لأن المهمة متعلقة بالحكم الذي حان على القوم، بعد أن صار لوط نفسه طرفاً منفصلاً عنهم في العقيدة والسلوك والمصير.

قال سبحانه في موضع آخر:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿لِنُرْسِلَ

عَلَيْهِمْ جَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾.

سأل إبراهيم عن الخطب، والخطب هو الأمر العظيم؛ فقد أدرك أن وراء

حضورهم شأنًا يتجاوز الزيارة العادية. فأجابه بوصف القوم قبل ذكر العقوبة: ﴿قَوْمٍ

**مُجْرِمِينَ** . إنهم لا يمشون إلى قوم عوقبوا بلا جريمة، ولا إلى قرية أخذت على غفلة من غير إنذار، بل إلى قوم ثبت إجرامهم وأصرروا عليه.

ثم قالوا: **﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾** ؛ فالعذاب الذي سيأتيهم ليس فوضى طبيعية عمياء، بل أمر مرسل بمقدار، موجه إلى من استحقه، ولذلك وصف الحجارة بأنها **﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾** ؛ معلمة مقدرة ليست متروكة للمصادفة. إن العدالة الإلهية لا تضرب كيفما اتفق، ولا يختلط فيها المجرم بالبريء؛ فالذي قدر العقوبة هو الذي أحاط علماً بالقلوب والأعمال والحدود التي بلغها كل إنسان.

إبراهيم يجادل عن قوم لوط

لم يتلق إبراهيم عليه السلام خبر العذاب ببرودة من يرى في هلاك الآخرين مشهداً بعيداً لا يعنيه، بل تحركت في قلبه الرحمة. قال تعالى:

**﴿قَلْبًا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾** إِنَّ إِبْرَاهِيمَ

**لَخَلِيمٌ أَوْاهٌ مُنِيبٌ** .

إنها آية تكشف مقاماً عجباً من مقامات النبوة؛ فقد علم إبراهيم أن القوم مجرمون، وعرف أن الرسل لم يأتوا من عند أنفسهم، ومع ذلك جادل في شأنهم، لا اعتراضاً على عدل الله، وإنما رجاءً في امتداد المهلة، وطمعاً في أن يكون باب النجاة ما يزال مفتوحاً، وشفقةً على لوط ومن معه.

ولم يذم الله هذه المجادلة من حيث باعثها، بل عقب عليها بمدح إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾. فهو حلیم لا يستفز جرم القوم إلى التشفي، وأواه رقيق القلب كثير التضرع، ومنيب يرجع إلى ربه في كل أمر. وهذه الصفات الثلاث تشرح لنا لماذا جادل؛ لم يكن مدافعاً عن الجريمة، بل كان قلباً رحيماً يتنى للمجرمين أن يرجعوا قبل أن يغلق الباب.

ما أبعد مقام النبوة عن الشماتة! إن الأنبياء أوضح الناس في تسمية الباطل، لكنهم أبعدهم عن التلذذ بهلاك أهله. يقفون أمام الفاحشة بصرامة الحق، ويقفون أمام مصير أصحابها برقة الرحمة. لا يخلطون بين رفض الجريمة وكراهية هداية المجرم، ولا يرون في وقوع العقوبة انتصاراً لذواتهم، بل نهاية مؤلعة لقوم رفضوا النجاة.

ويعللنا هذا المشهد أن الغضب لله إذا لم تصحبه رحمة بالخلق قد يتسلل إليه حظ النفس؛ فال مؤمن لا يتنى للناس الهلاك لأنه اختلف معهم، وإنما يتنى لهم الهداية، وينذرهم من العاقبة، ويظل يرجو رجوعهم ما دام باب التوبة مفتوحاً. فإذا جاء حكم الله بعد تمام الحجّة، سلم لعدله، لكنه لا يحول مشهد الهلاك إلى وليمة للشماتة.

إلا أن الرحمة البشرية، مهما عظمت، لا تحيط بما أحاط به علم الله. وقد بلغ القوم مرحلة لم تعد المهلة بعدها تنشئ توبة، بل تزيد الإفساد. فجاء الجواب:

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾؛ فقد انتهى زمن المجادلة، لا لأن الرحمة مذمومة، بل لأن الحكم صدر عن علم كامل لا يخفى عليه ما في القوم، ولأن فرصة الرجوع التي منحت لهم لم يعد لها موضع في نفوسهم. ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾؛ وحين يجيء أمر الله لا تبقى المسألة احتمالاً تاريخياً قابلاً للتأجيل، بل تصبح وعداً نافذاً: ﴿وَأَنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

وفي نسبة الأمر إلى الرب معنى يملأ القلب طمأنينةً حتى في مقام العقوبة؛ فهو أمر ربك الذي يربي خلقه بالرحمة والحكمة والعدل، وليس انفجار قوة بلا ميزان. والذي حلم عليهم طويلاً هو الذي حكم بانتهاء الحلم، والذي أرسل إليهم لوطاً وأنذرهم هو الذي عرف أنهم أغلقوا بإرادتهم منافذ العودة.

السؤال عن لوط: العدل الذي لا ينسى فرداً صالحاً حين علم إبراهيم أن الرسل ذاهبون لإهلاك أهل القرى، حضر لوط في قلبه. قال تعالى:

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنِ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ

الْغَايِرِينَ﴾.

كلمة إبراهيم قصيرة: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، لكنها تحمل خوفاً على النبي الذي يعيش وسط القوم؛ كأنه يقول: كيف يأتي العذاب مدينةً وفيها عبد صالح؟ فجاءه الجواب

الذي يثبت ميزان العدل: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنِ فِيهَا﴾.

ما أوسع الطمأنينة في هذه الجملة! الله لا يرى القرية ككَلَّةٍ مبهمةً تذوب فيها الفروق بين الناس، بل يعلم من فيها فرداً فرداً، ويعرف موضع الإيمان من القلب، ويميز بين المقيم في المكان والراضي بفساده، وبين المحاصر بالشر والمشارك فيه. قد تسكن الأجساد أرضاً واحدة، لكن المصائر لا تتحدد بالجغرافيا؛ إنما تتحدد بالموقف والإيمان والعمل.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾؛ فلا يحتاج لوط إلى أن يرفع اسمه في قائمة الناجين، ولا يمكن أن يضيع وسط كثرة المجرمين، ولا يقع عليه ما يقع عليهم لمجرد أنه يعيش بينهم. العلم الذي أحصى الحجارة المسومة هو نفسه العلم الذي أحصى القلب المؤمن في المدينة، والقدرة التي ستقلب القرية هي نفسها القدرة التي ستفتح للهؤمن ممراً آمناً في الليل.

ثم جاء الوعد مؤكداً: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾. تأكيد يقطع الخوف ويعلم أن النجاة مقررة قبل وصول العذاب. لكن الاستثناء جاء مباشرة: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِرِينَ﴾؛ فالبيت الواحد لا يفرض مصيراً واحداً على أهله إذا اختلفت قلوبهم. النجاة لا يحكمها القرب من جسد النبي، وإنما القرب من رسالته؛ وامرأة لوط كانت في بيته مكاناً، لكنها كانت مع قومه ولائاً واختياراً، ولذلك بقيت في الحكم مع من اختارهم.

استخراج المؤمنين قبل نزول العذاب

قال تعالى:

﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٦﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

هذه الآية من أشد آيات القصة كشفًا لوحدة لوط عليه السلام؛ فالقرى التي ضجت بالسكان لم يكن فيها- في ميزان الإيمان- غير بيت واحد. مدن كاملة، وطرقات، ومجالس، وجموع تهرع، وأصوات تتعالى، لكن حين نُخل المجتمع بمنخل الإيمان لم يبق إلا بيت منفرد.

وما أقسى الفرق بين ازدهام الأجساد وفراغ الأرواح! قد تبدو المدينة حيةً بكثرة سكانها، لكنها تكون في ميزان الله خاويةً إذا مات فيها الإيمان والعدل والحياء. وقد يبدو بيت صغير محاصرًا لا يملك القوة، لكنه يكون الحقيقة الباقية في المكان كله.

وتأمل قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾؛ فالنجاة بدأت بالإخراج. لم يبق الله المؤمنين داخل موضع الهلاك ثم يحميم فيه فحسب، بل أمرهم بمفارقة المكان؛ لأن الأرض حين تستكمل شروط سقوطها لا تعود الإقامة فيها أمنًا. وفي ذلك معنى تربوي عميق: قد تكون النجاة أحيانًا في مغادرة ما ألفه الإنسان، وفي أن يترك خلفه بيتًا وذكرى وطريقًا؛ فليس كل بقاء وفاءً، ولا كل خروج هزيمة. قد يصبح الخروج هو الموقف الوحيد الذي يحفظ الدين والحياة.

ثم قال: ﴿مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وبعدها: ﴿غَيْرِ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. وفي الجمع بين الإيمان والإسلام إشادة بذلك البيت الذي صدق باطنه وانقاد ظاهره؛ لم يكن إيمانًا مختبئًا عاجزًا عن المفاصلة، بل إيمانًا استجاب لأمر الرحيل حين جاءت ساعة الرحيل.

ومع ذلك كان على هذا البيت أن يمر بأطول ليلة في القصة؛ ليلة لا يعرف لوط في بدايتها حقيقة ضيوفه، ولا يدري أن المدينة قد بلغت آخر ساعاتها. الرسل يعرفون أن النجاة كُتبت له، وإبراهيم تلقى الوعد بنجاته، لكن لوطًا نفسه سيستقبل اللحظة

بحدود ما يرى: رجال غرباء دخلوا بيته، وقوم اعتادوا مطاردة الغرباء، ومدينة لا يجد فيها ركنًا بشرياً يحمي الحرمات.

وصول الرسل إلى لوط

قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

جاءت الرسل إلى لوط، فلم يستقبل حضورهم بالفرح الذي يستقبل به الضيف عادة؛ لا بخلاً بالضيافة، ولا كراهية لهم، وإنما خوفاً عليهم. رأى غرباء قد دخلوا مدينة لا تحفظ للغريب حرمة، وشعر منذ اللحظة الأولى أن وجودهم سيضعه أمام امتحان قاسٍ.

﴿سِيءَ بِهِمْ﴾؛ دخلت المساءة إلى نفسه بسبب ما توقعه لهم من قومه. فاهم هنا ليس هم الذات، بل هم الأمانة؛ إنهم نزلوا بساحته، وصار الدفاع عنهم واجباً عليه، لكنه يعرف طبيعة المدينة ويعرف محدودية قوته.

ثم قال: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾. والذرع في أصل الصورة مقدار ما تمتد إليه اليد؛ فكأن الأمر اتسع حتى جاوز قدرته ووسعه، أو كأن يديه لا تبلغ من وسائل الحماية ما يكفي لدفع قوم بأكلهم. لم يضق بالضيوف أنفسهم، بل ضاق بما سيأتي بسببهم، وبالمسافة الموجعة بين عظم المسؤولية وقلة الوسيلة.

إنها لحظة يعرفها كل صاحب مبدأ حين يرى الحق الذي يجب أن يحميه، ثم ينظر إلى قوته فلا يجدها توازي الخطر. ليس العجز في هذه اللحظة جبنًا؛ فقد يكون الإنسان أشجع ما يكون، لكن عدد الخصوم وعدتهم وسلطانهم أكبر من قدرته.

والنبوة لا تنزع عن صاحبها مشاعر البشر؛ لوط يرى الخطر، ويحسب ما يملك، ويشعر بالضيق، لكنه لا يفكر في تسليم ضيوفه كي ينجو بنفسه.  
ثم اختصر ثقل اللحظة كلها في قوله:

﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

لم يقل: هذا يوم صعب فحسب، بل عصيب؛ كأن الشدة قد انعقد بعضها في بعض والتفت حول النفس حتى ضيقت عليها الحركة. يوم اجتمع فيه خوفه على الضيف، ومعرفته بالقوم، وقلة الناصر، وحرمة البيت، ومسؤولية النبوة.  
وفي سورة العنكبوت:

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِينَ﴾.

لكن هذه الطمأنينة ستأتي بعد أن ينكشف للوط من أمرهم ما كان خافياً، وبعد أن تبلغ الحنة ذروتها. أما عند البداية، فهو يرى المشهد من الأرض، لا من الغيب؛ يرى ضيوفاً يحتاجون إلى حمايته، بينما هم في الحقيقة رسل جاءوا لحمايته. يظن أنهم دخلوا تحت أمانه، والحقيقة أن الله أرسلهم ليخرجوه إلى الأمان. يخاف أن يصل القوم إليهم، وهم الذين يحملون أمر الله الذي لن يستطيع القوم رده.

وهذه من ألطف مفارقات القصة: قد يدخل الفرج حياة الإنسان في صورة عبء يخافه؛ وقد يحمل إليه القدر خلاصه في الهيئة التي تثير قلقه. لوط رأى في

وصول الغرباء بداية يوم عصيب، ولم يكن يعلم أن ذلك اليوم نفسه سيكون نهاية أعوام العذاب، وأن الضيوف الذين أثقلوا قلبه خوفاً هم رسل الطمأنينة والنجاة.

من أخبر المدينة؟

لم يفصل القرآن الطريق الذي انتشر به خبر الضيوف، لأن العبرة ليست في وسيلة انتقال الخبر، وإنما في الاستجابة التي كشفها. وقد ذكر المفسرون أن امرأة لوط دلت القوم عليهم، وهو معنى ينسجم مع خيانتها للدعوة وولائها لقومها، غير أن النص القرآني يوجه النظر أساساً إلى النتيجة: ما إن بلغ القوم خبر الضيوف حتى تحركت المدينة.

قال تعالى:

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾.

لم يأتوا متثاقلين، ولم يتفرقوا أفراداً مترددين، بل جاءوا ﴿يُهْرَعُونَ﴾؛ يسرعون مدفوعين بدافع لا يمنح العقل فرصةً للمراجعة. والهرع سرعة فيها اضطراب واندفاع، كأن الشهوة تقود الأجساد من خارج إرادتها، أو كأن القوم يخشون أن يفوتهم نصيبهم من المنكر.

والقرآن لا يعرض اندفاعهم كحادثة مفاجئة بلا جذور، بل يقول: ﴿وَمِنْ قَبْلُ

كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾. فالليلة لم تصنع فسادهم، وإنما كشفت ما صنعته السنوات فيهم. لم يبدأ سقوطهم عند باب لوط؛ لقد تدرّبوا طويلاً على المعصية، وأضعف كل فعل فيهم حاجزاً، حتى إذا جاءت لحظة الامتحان الأخير لم يجدوا في أنفسهم مقاومةً للدفاع.

إن الأعمال لا تنتهي بانتهاء لحظاتها؛ فكل فعل يترك أثراً في صاحبه، ويصنع جزءاً من استعداده للفعل التالي. من يكرر الاستجابة للشهوة يضعف قدرته على رفضها، ومن يكرر انتهاك الحدود يحو من نفسه رهبتها، حتى تأتي ساعة لا يشعر فيها أنه يختار، مع أنه أمضى زمناً طويلاً يصنع باختياراته هذه العبودية.

والقوم الذين هرعوا إلى بيت لوط لم يكونوا غرباء عن المنكر: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾. جاءت الصيغة بالفعل المضارع الدال على التجدد؛ كان العمل ديدناً متكرراً، لا زلّة انقضت. ولذلك تحولت المدينة كلها في لحظة إلى حشد؛ فقد اتحدت الأجساد لأن الشهوة كانت قد وحدت وجهتها من قبل.

بيت واحد في مواجهة مدينة

هناك وقف لوط عند الحد الفاصل بين عالمين: خلفه ضيوف يظن أنهم بشر ضعفاء استجاروا ببيته، وأمامه قوم جاؤوا مدفوعين بالشهوة والعدوان. لم يكن معه جيش، ولا عشيرة قوية، ولا سلطان يرد الحشود؛ لم يكن يملك سوى حرمة النبوة، وحنة الفطرة، وكلمات يحاول بها أن يوقظ فيهم آخر ما بقي من المروءة.

كان الباب في تلك اللحظة أكثر من قطعة خشب تفصل داخل البيت عن خارجه؛ كان الحد الأخير بين الإنسان حين يحمي الحرمة والإنسان حين يتحول إلى قوة اقتراس. وكان لوط واقفاً عند هذا الحد وحده، كأن جسده هو الباب، وكأن عليه أن يمنع مدينة كاملة من العبور إلى جرميتها الأخيرة.

سيخاطبهم أولاً بما يذكرهم بالطريق الطاهر، ثم يستنجد بما بقي فيهم من خشية الفضيحة وحرمة الضيافة، ثم يبحث بينهم عن رجل رشيد. لكن المجموع التي تدربت

طويلاً على إسكات الضمير لن نتوقف بسهولة، وسيقولون له بوقاحة تكشف سبق الإصرار:

﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

عندئذ سيبلغ كرب لوط قته، وتخرج من قلبه الكلمة التي خلدت عزله:

﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

وسيأتيه الرد من داخل البيت، من الضيوف الذين ظن أنه مسؤول عن حمايتهم:

﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾.

هناك سيتحول اليوم العصيب إلى ليلة النجاة، وينكشف الركن الشديد الذي كان حاضراً وإن غاب عن العين.

## الفصل الرابع

### عِنْدَ بَابِ لُوطٍ

حِينَ وَقَفَ نَبِيُّ وَحْدَهُ فِي وَجْهِ مَدِينَةٍ تَهْرَعُ إِلَى الْفَاحِشَةِ

لم يكن بيت لوط عليه السلام حصناً عسكرياً، ولم يكن بابه محروساً برجال القبيلة وال سلاح، لكنه كان آخر موضع في المدينة ما تزال للحرمة فيه حرمة، وللضيف فيه ذمة، وللطهارة فيه صوت. وحين جاءت الجموع تهرع إليه، لم تكن تتجه إلى منزل رجل واحد فحسب، بل كانت تتقدم نحو الحد الأخير الذي يفصل المدينة عن اكتمال جريمتها.

قال تعالى:

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾.

في قوله: ﴿جَاءَهُ قَوْمُهُ﴾ مفارقة موجعة؛ فهم قومه الذين كان الأولى بهم أن يكونوا له ظهراً، وأن يحفظوا حرمة بيته، وأن يجيبوا دعوته، لكن رابطة القوم تحولت إلى حصار. لم يأت غرباء من خارج المدينة لينتهكوا أمنها، بل جاء أهلها أنفسهم؛ فالخطر الذي يهدد لوطاً لم يكن غزواً طارئاً، وإنما فساداً داخلياً صار هو القوة الغالبة.

وجاءوا ﴿يُهْرَعُونَ﴾؛ يسوق بعضهم بعضاً في سرعة مضطربة. لم يكن في مشيتهم وقار الإنسان الذي يقود جسده بإرادته، بل اندفاع من تقوده شهوته حتى يكاد يفقد

سيادته على نفسه. لقد ظنوا أنهم يطلبون ما يريدون، بينما كانوا في الحقيقة يُساقون بما يريدونه؛ ومن سَلَّم زمام إرادته للشهوة لم يعد حراً وإن توهم أن إطلاقها غاية الحرية.

والجموع حين تتحرك نحو المنكر تمنح كل فرد فيها شعوراً زائفاً ببراءته؛ إذ يذوب قراره في قرار الجماعة، ويخف عنه ثقل المسؤولية لأنه يرى الآخرين يفعلون ما يفعل. لكن القرآن لم يذهب في كتمة تعفي الأفراد، بل وصف فعلهم جميعاً لتبقى مسؤولية كل واحد قائمة. لقد كان في وسع كل رجل منهم أن يتوقف، وأن يعود، وأن يكون هو الرجل الرشيد الذي يبحث عنه لوط، لكنهم اختاروا أن يضاعف بعضهم اندفاع بعض.

﴿هُؤْلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾

وقف لوط عليه السلام يخاطب القوم:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ

رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾.

يبدأ خطابه مرة أخرى بنداء القرب: ﴿يَا قَوْمِ﴾. لم تدفعه وحشية اندفاعهم إلى أن يتخلى عن مسؤوليته في دعوتهم، ولم يقل: يا أعدائي، مع أنهم أحاطوا ببيته يريدون ضيوفه؛ بل ذكرهم بالرابطة التي كان ينبغي أن توقظ فيهم الحمية والمروءة: أنتم قومي، وأنا منكم، وهذا بيتي، وهؤلاء ضيوفي، فلا تجعلوا صلتي بكم باباً للخي.

ثم قال: ﴿هُؤْلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾.

وقد ذكر المفسرون في المراد بيناته قولين مشهورين؛ فقليل: أراد بناته حقيقةً، يعرض عليهن الطريق المشروع بالزواج، وقيل: أراد نساء قومه؛ لأن النبي بمنزلة الأب لأُمته في الشفقة والهداية، فبدل الرجال على نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم. وعلى كلا المعنيين فليس في الكلام عرض للحرام، وحاشا لنبي أن يدفع عن منكر بمنكر، وإنما هو ردُّ لهم إلى الزواج المشروع والطريق الطاهر الذي أعرضوا عنه.

إن لوطاً لا يفاوضهم على درجات الفاحشة، بل يضع أمامهم الفرق بين طريقتين: طهارة أباحها الله، وعدوان حرمه الله. ولذلك لم يقل: هؤلاء بناتي أقرب إليكم أو أيسر، بل قال: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾؛ فمحور المسألة ليس مجرد إشباع الدافع، وإنما طهارة الطريق الذي يسلكه الإنسان لإشباعه.

والطاهر ليس ما خلا من اللذة، بل ما وافق أمر الله وحفظ الكرامة وأقام العلاقة على العهد والمسؤولية. أما الفاحشة فليست مذمومة لأن فيها شهوة، وإنما لأن الشهوة انفصلت فيها عن غايتها وحدها، ثم صارت عدواناً على الفطرة والإنسان.

ولفظ ﴿أَطْهَرُ﴾ لا يعني وجود طهارة في مقصدهم الآخر، وإنما هو من أسلوب المفاضلة الذي يراد به إثبات الفارق وإرشادهم إلى الطريق الذي ينبغي أن يختاروه. كأنه يقول: دعوا هذا القصد الخبيث، وارجعوا إلى ما شرعه الله لكم؛ فهناك باب لا يحتاج الإنسان معه إلى كسر الأبواب، وعلاقة لا تقوم على الإكراه، وشهوة لا تهدم صاحبها لأنها تتحرك داخل عهد الطهارة والمسؤولية.

لكن قول لوط: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يكشف كذلك مبلغ ما بلغه من محاولة استنقاذ قومه وضيوفه. إنه يقدم لهم البديل المشروع، ويزيل عنهم كل دعوى بأنهم لا يجدون

طريقاً، ويعيدهم إلى النساء اللاتي تركوهن: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ

أَزْوَاجِكُمْ﴾. لم يكن الخلل إذن انعدام البديل، بل فساد الاختيار؛ فالطريق الحلال قائم، لكنهم لا يريدونه لأن الشهوة حين يفسدها الإسراف لا تبحث عن الإشباع وحده، بل تتلذذ بتجاوز الحد نفسه.

### ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾

بعد أن دلهم على الطريق الطاهر نقلهم إلى أصل الرقابة كلها: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

لم يقل لهم: اخشوا القانون، لأن القانون في مدينتهم قد سقط أو صار في يد الأكثرية المنحرفة، ولم يقل: اخشوا كلام الناس، لأن الناس هم الذين اجتمعوا عند الباب، وإنما ردهم إلى الله الذي لا تتغير حدوده بتغير أهواء الجماعات.

فإذا تواطأ المجتمع على إسقاط الحياء، بقيت تقوى الله الحارس الأخير في ضمير الإنسان. وإذا صفق النادي للنكر، فإن علم الله لا يتبدل بالتصفيق. وإذا كثر الفاعلون حتى شعر كل واحد منهم أن كثرتهم تحميه، فإنهم جميعاً مكشوفون أمام من يعلم السر وأخفى.

والتقوى ليست خوفاً مجرداً من العقوبة، بل وعي بحضور الله يحمل الإنسان على أن يجعل بينه وبين سخطه وقاية. كأن لوطاً يحاول أن يرد الجموع من غيبوتها إلى أعماق حقيقة: لستم وحدكم عند هذا الباب، والله يراكم، ويعلم ما جاءت بكم نفوسكم، وقد بلغكم نهيه، فلا تجعلوا اندفاع اللحظة يحجب عنكم المصير.

لكن القوم الذين تحدوا العذاب من قبل لم تعد كلمة التقوى تحرك فيهم ما ينبغي أن تحركه؛ فقد تعطلت صلتهم بالغيب حتى لم يعودوا يرون إلا الشيء القريب الذي تطلبه شهواتهم. وهذه إحدى ثمار الإدمان الأخلاقي: أنه يضيق أفق الإنسان، فلا يرى من الزمن إلا اللحظة، ولا من العالم إلا الجسد، ولا من العاقبة إلا اللذة العاجلة، ثم يفاجأ بأن اللحظة التي ظنها كل شيء كانت باباً إلى مصير لم يحسبه.

### ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾

ثم خاطب فيهم معنى المروءة بعد أن خاطب معنى التقوى:

### ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾.

إن لم توقظهم خشية الله، فلعل حرمة الضيف توقظ ما بقي من إنسانيتهم. والضيف في التعبير مفرد يراد به الجنس، وإن كان القادمون جماعة؛ كأنهم صاروا في ذمة الضيافة كياناً واحداً، وصارت مسؤولية حمايتهم أمانة لا تتجزأ.

وقوله: ﴿فِي ضَيْفِي﴾ أبلغ من أن يقول: لا تؤذوا ضيفي؛ لأن الخزي سيقع بلوط نفسه إذا تمكنوا من دخولوا في جواره. كان يرى أن الاعتداء عليهم اعتداء على شرفه وحرمة بيته، وأن الإنسان لا يكون كريماً لمجرد أن يفتح بابه للضيف، بل حين يصبح مستعداً لأن يدفع عنه الأذى بعد دخوله.

لقد انتقل لوط في خطابه من بيان البديل الطاهر، إلى التذكير بالله، إلى استئثاره نخوتهم الاجتماعية؛ يستفتح كل نافذة يمكن أن يدخل منها النور إلى قلوبهم. وهذه رحمة الداعية الذي لا يكفي بحجة واحدة، بل يخاطب في الإنسان عقله وفطرته ودينه ومروءته، لعل واحداً من هذه الأبواب لم يغلق بعد.

وفي سورة الحجر قال:

﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿١٠٠﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾.

هنا يضع حقيقة الضيافة أمامهم مباشرة: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾. ليست لهم بكم صلة، ولم يدخلوا مدينتكم يريدون أذى أحد، وقد نزلوا في حمايتي، فلا تجعلوا قدومهم إليَّ سبباً لفضيحتي بينهم.

وتأمل قوله: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾، ثم ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾. الفضيحة انكشاف السوء أمام الناس، والخزي ذل يلحق النفس بسبب العجز أو العار. وكان لوط يخشى أن يظهر أمام ضيوفه رجلاً لا يستطيع حماية من دخل بيته، وأن تُنتهك في حضرته حرمة جعل نفسه مسؤولاً عنها.

إن الألم الذي يعتصره هنا ليس خوفاً على سمعته الشخصية، وإنما وجع الأمانة حين تعجز الوسيلة عن الوفاء بها. وما أقسى أن يرى الإنسان حقاً يجب عليه أن يحميه، ثم ينظر حوله فلا يجد يداً تعينه! لذلك كان لوط يتحرك بالكلمات بين وجوه القوم، يبحث فيهم عن بقية ضمير، لكنه لا يسمع إلا إصراراً أشد.

﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾

ثم خرج السؤال الذي يلخص مأساة المجتمع كله:

﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾.

لم يقل: أليس فيكم رجال؟ فالمدينة كانت ممثلة بالرجال، والجموع عند بابه كثيرة، لكنه كان يبحث عن صفة غابت من تلك الكثرة: الرشد. وما قيمة العدد حين يفتقد أصحابه القدرة على رد أنفسهم عن الباطل؟ وما قيمة القوة الجسدية إذا صارت خادمة للشهوة؟ وما معنى الرجولة إذا لم تقف لحماية ضعيف، أو صيانة ضعيف، أو كف عدوان؟

كان يكفي لوطاً في تلك اللحظة رجل واحد رشيد؛ رجل لا تبتلعه الجموع، ولا يخشى أن يفصل عنها، يقف ويقول: هذا منكر، وهذا بيت له حرمة، وهؤلاء ضيوف لا يجوز مسهم. وربما كانت وقفة واحد توقظ ثانياً، ثم ثالثاً، وتكسر سحر الحشد الذي يوهم كل فرد أن الجميع موافقون.

لكن الطغيان الاجتماعي ينجح حين يقنع الرشداء المحتملين بأنهم وحدهم؛ فيصمت كل واحد منتظراً غيره، ثم يبدو الصمت كأنه رضا عام. وقد يكون في الجموع من يشعر بقبح ما يحدث، لكنه لم يملك شجاعة الانفصال عنها، فضاع صوته داخل ضجيجها. والرشد الذي لا يتحول إلى موقف عند الحاجة يوشك أن يصبح معرفة عاجزة لا تغير شيئاً.

وسؤال لوط لا يزال عابراً للأزمنة: «أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ؟»؛ أليس في المجتمع من يرفض أن يقاد بالرغبة العامة؟ أليس في أصحاب القوة من يحمي الحرمة بدل أن ينضم إلى المعتدين؟ أليس في المجلس من يقطع موجة السخرية؟ أليس في زمن اختلطت فيه المعايير إنسان يملك شجاعة أن يسمى الأشياء بأسمائها؟

إن المجتمعات لا تسقط فقط بكثرة المفسدين، بل بندرة المواقف الرشيدة؛ فقد يكون الصالحون كثيرين في دواخلهم، لكنهم إذا غابوا عن لحظة الشهادة بدا

المفسدون كأنهم المجتمع كله. ولذلك لم يسأل لوط عن رجل صالح في بيته، بل عن رجل رشيد بينهم؛ لأن الرشد هنا ليس إحساساً باطنياً، بل قدرة على تقدير العاقبة واتخاذ الموقف الذي يوقف الاندفاع.

وجاء الجواب من القوم دالاً على أن نداءه لم يبلغ فيهم موضعاً حياً:

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

لم يقولوا: لم نعلم أنهم ضيوفك، ولم يتراجعوا احتراماً لحُرمة المنزل، بل ذكّروه بأنهم سبق أن منعه من استقبال الناس وحمايتهم. ومعنى كلامهم: ألم ننهك أن تضيف أحداً أو تجبر غريباً أو تحول بيننا وبين من نريد؟

إنها ليست جريمة لحظتها؛ بل هناك قرار اجتماعي سابق بحاصرة الضيافة نفسها. لقد أدركوا أن بيت لوط يمثل ملاذاً للغرباء، فأرادوا إغلاق هذا الملاذ؛ لأن المجتمع المعتدي لا يكتفي بمطاردة الضعفاء، بل يعاقب من يحميهم. وهكذا تصبح الرحمة مخالفةً لنظام المدينة، ويغدو فتح البيت جريمة، وينهى الإنسان عن أن يكون إنساناً.

﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾؛ واللفظ واسع: كأنهم لا يريدون له علاقةً بأحد من خارج دائرتهم، ولا يريدون أن يدخل عالمهم شاهد جديد يرى ما يفعلون. فالفساد يحب العزلة التي يحكمها بنفسه، ويخشى كل قادم يحمل عيناً لم تعتد قبحه بعد.

وردد لوط:

﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

أي إن كنتم لا بد فاعلين ما تقصدون من قضاء الشهوة، فهذا طريقها المشروع أمامكم. لكنه كان يعلم من إصرارهم أنهم لا يبحثون عن الحلال، وإنما اندفعوا إلى ما ألقوه من العدوان.

جواب لا يترك باباً للعدر

قالوا:

﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

إنها عبارة مكشوفة لا موضع فيها لتردد أو نجمل. ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾؛ فهم لا يريدون أن يسمعوا عرضاً للطهارة، ويعلنون أن الطريق المشروع لا رغبة لهم فيه. ومعنى ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ عند كثير من المفسرين: ليس لنا فيهن حاجة أو رغبة، أو ليس لنا فيهن حق من زواج قائم على الوجه المشروع. ثم حسموا مقصدهم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

لم يسموا ما يريدون؛ لا لأنهم يستحيون منه، فقد تجاوزوا الحياء، بل لأن الحال صار يغني عن التصريح. يعرف لوط، ويعرفون أنه يعرف، وقد جاءت الجموع كلها من أجل ذلك المقصد. وهنا تبلغ المجاهرة ذروتها: لم تعد الفاحشة تحتاج منهم إلى تبرير، بل صاروا يطالبون النبي بأن يتعامل معها كحقيقة مفروضة لا تقبل النقاش.

وفي سورة القمر يرسم القرآن اندفاعهم بعبارة أشد كشافاً:

﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾.

المراودة طلب متكرر يصاحبه إلحاح ومحاولة بلوغ المراد. لم تكن كلمة قيلت ثم انصرفوا، بل ضغطاً مستمراً على لوط ليسلم إليهم ضيوفه. وكأنهم يحاولون أن يجعلوه شريكاً في الجريمة؛ فإن فتح لهم الباب سقط آخر حصن للطهارة، وأصبح بيت النبوة نفسه طريقاً للفاحشة.

لكن لوطاً ظل واقفاً. ضاق ذرعاً، وشعر بثقل العجز، ولم يسلم إليهم أحداً. وهذه هي الشجاعة في صورتها العارية: ألا تملك قوة الانتصار الظاهرة، ومع ذلك ترفض أن تمنح الباطل موافقتك. قد لا تستطيع دفع الجموع، لكنك تستطيع ألا تفتح لها الباب؛ وقد لا تغير المدينة في تلك اللحظة، لكنك تمنعها من أن تمر إلى جريمتها عبر إرادتك.

﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾

حين رأى لوط إصرارهم قال:

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

هذه ليست كلمة جبن، بل كلمة مسؤولية متألمة. إنه يتنى قوةً ماديةً يدفع بها عن ضيوفه، أو عشيرةً منيعَةً تحيط به وترد القوم. كان غريباً بينهم، قليل الناصر، وقد اجتمعت المدينة عند بابه، نفجرت منه الأمانة البشرية الطبيعية: لو أن لي قدرةً أواجهكم بها، أو سنداً ظاهراً أحتمي به.

ولم يقل: لو أن لي قوةً لأنجو بنفسي، بل ﴿بِكُمْ﴾؛ أي قوةً أواجه بها اندفاعكم وأمنعكم من بلوغ ضيوفي. تمنيه للقوة لم يكن شهوة سيطرة، بل طلباً لأداة تحمي الحق. فالقوة في ذاتها ليست مذمومة؛ إنما تتحدد قيمتها بالغاية التي تتخدمها. قد تكون القوة

أداة اقتراس كما كانت عند القوم، وقد تكون جداراً يحفظ المستضعف كما تمناها لوط.

وأما قوله: ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، فالركن ما يستند إليه الإنسان ويأمن بقوته، وكان يقصد في ظاهر المقام سنداً من الرجال والعشيرة. وليس في ذلك غفلة عن ركن الله ولا ضعف في التوكل؛ فقد كان نبياً يعلم أن الله ناصره، لكن الإيمان لا يلغي طلب الأسباب، والتوكل لا يمنع الإنسان من أن يتنى قوة يدفع بها العدوان. وقد قال النبي ﷺ: «يرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد»؛ أي إنه كان في الحقيقة يأوي إلى الله، وإن غلب عليه في شدة اللحظة النظر إلى الأسباب البشرية التي لم يجد لها حوله. لم يكن الركن الشديد غائباً، وإنما كان محجوباً عن العين حتى تحين لحظة ظهوره.

إن في هذه الكلمة عزاءً لكل من ضاقت به الأسباب وهو قائم بحق؛ فقد ينظر حوله فلا يجد عشيرة، ولا قوة، ولا باباً ظاهراً للنجاة، فيظن أن وحدته نهاية الطريق. لكن لوطاً كان يقول كلمته والملائكة في بيته، وكان يتنى الركن الشديد بينما رسل الركن الشديد يقفون خلفه. لقد كان الفرج أقرب إليه من الجموع، لكن طبيعة الامتحان اقتضت ألا يعرفه إلا بعد أن يبذل آخر ما يملك من ثبات.

انكشاف حقيقة الضيوف

عندما بلغ الكرب منتهاه، تكلم الضيوف:

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾.

ما أعظم الانتقال من قول لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾، إلى قولهم: ﴿لَنْ يَصِلُوا

إِلَيْكَ﴾! كان يخشى أن يصلوا إلى ضيوفه، فناء الوعد أنهم لن يصلوا إليه هو ولا إليهم. وكان يظن أن حماية البيت مسؤوليته وحده، فانكشف له أن البيت تحت حماية السماء.

نادوه باسمه: ﴿يَا لُوطُ﴾؛ نداء تعريف وطمأنة، ثم كشفوا حقيقتهم: ﴿إِنَّا رُسُلُ

رَبِّكَ﴾. لم يقولوا: إنا أقوياء، بل نسبوا أنفسهم إلى ربه؛ فصدر الأمن ليس ذواتهم، وإنما الجهة التي أرسلتهم. إن ربك الذي أمرك بالدعوة لم يتركك، وربك الذي رأى غربتك أحصى صبرك، وربك الذي أهل القوم طويلاً قد قضى أمره.

ثم جاء الوعد قاطعاً: ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾. لن هنا تنفي المستقبل، كأن باب الخوف أغلق بهذه الكلمة. قد أحاطوا بالمنزل، وقد مدوا أيديهم، وقد ظنوا أن كثرتهم كافية، لكن المسافة بين إرادة المخلوق ووقوع مراده يحكمها الله؛ يريدون الوصول، ويملكون أسبابه في الظاهر، ثم تأتي كلمة واحدة من السماء فتصير قوتهم عجزاً، وعيونهم عمى، واجتماعهم تيهاً.

وقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرْ﴾.

لقد أرادوا أن يجعلوا أبصارهم طريقاً إلى الفاحشة، فطمس الطريق نفسه. والعين التي لم تعتبر بآيات الله، ولم تر حرمة البيت، ولم تبصر إنسانية الضيف، فقدت قدرتها على الإبصار حين جاء الحكم. وكأن العمى الحسي ظهر بعد أن استحكم العمى

الأخلاقي؛ فقد كانوا قبل الطمس يرون الأجساد ولا يرون الحرمات، ويرون البيت ولا يرون قدسيته، ويرون لوطاً ولا يرون نبوته.

وفي سورة الحجر:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

والعمه تردد في العمى والحيرة، أما السكره فهي الحالة التي تحجب العقل عن تقدير الأشياء. لم يكونوا سكارى بخر مادي في هذا السياق، بل سكارى بالشهوة؛ فقد حجب عنهم وضوح المصير، وأفقدتهم القدرة على الوقوف مع أنفسهم لحظة واحدة.

والشهوة حين تبلغ بالإنسان حد السكر لا تزيد رؤيته، بل تضيقها؛ فلا يرى إلا مطلوبه، ولا يسمع إلا صوته الداخلي، ولا يقدر العواقب، حتى يصطدم بها. كان القوم في آخر ليلة من تاريخ مدينتهم، والعذاب أقرب إليهم من الصبح، ومع ذلك لم تشغلهم السماء ولا النذارة ولا وقفة النبي، بل ظلوا يبحثون عن الباب.

وهنا حدث الفصل الحاسم: القوم خارج البيت قد طُمست أعينهم وتقطعت بهم جهة الوصول، ولوط داخل البيت قد انكشفت له حقيقة ضيوفه واستعداد الطمأنينة. في لحظة واحدة انتقلت الحيرة من قلب النبي إلى جموع المعتدين؛ كان هو الذي يقول: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾، ثم صاروا هم الذين يعمهون ولا يبتدون.

غير أن النجاة لم تكن تعني بقاء لوط في البيت ينتظر الصباح، فقد جاءه الأمر أن يخرج ليلاً. كان عليه أن يترك المدينة التي دعاها طويلاً، والبيت الذي وقف عند

بابه، والطرق التي مشت فيها خطواته، وأن يمضي بأهله قبل أن يلتفت الفجر إلى القرى.

وجاء الأمر دقيقاً حاسماً:

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾.

انتهى زمن الوقوف عند الباب، وبدأت رحلة الخروج؛ وفي النهي عن الالتفات سر يتجاوز حركة الرأس إلى حركة القلب: حين ينجيك الله من أرض استكملت أسباب هلاكها، فلا تجعل قلبك يبقى أسيراً لما أمرت بمفارقتها.

## الفصل الخامس

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ  
النَّجَاةَ حِينَ تَصِيرُ مُغَادِرَةً، وَالْإِيمَانَ حِينَ يُتَحَنُّ بَعْدَ الْإِلْتِفَاتِ

لم تكن نجاة لوط عليه السلام أن يبقى داخل بيته محتماً بالملائكة حتى ينقضي العذاب، بل جاءت في صورة أمرٍ بالحركة: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾. فقد انتهت مهمة الدعوة في تلك الأرض، واستوفى القوم فرصتهم، ولم يعد البقاء بينهم صبراً محموداً، بل صار خروج المؤمنين إيداناً بانتهاء المهلة وابتداء الحكم.

إن النجاة في التصور القرآني ليست دائماً راحةً تهبط على الإنسان وهو ساكن في مكانه؛ فقد تكون تكليفاً يطالبه بأن ينهض في ساعة لا يحب النهوض فيها، وأن يترك ما ألفه، وأن يسير في ظلمة الليل نحو جهة لا يرى جميع تفاصيلها. والإنسان بطبيعته يريد أن يعرف الطريق كله قبل أن يضع قدمه على أوله، لكن الإيمان يعلمه أحياناً أن يكفيه من المعرفة أن الأمر هو الله، وأن الخطوة التي يأمره بها آمن من مكان يعرفه لكنه لم يعد مأذوناً له بالبقاء فيه.

قالت الملائكة للوط عليه السلام:

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

وفي سورة الحجر:

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾.

جاء الأمر بالفداء: ﴿فَأَسْرِ﴾؛ فلا فسحة للتردد بعد انكشاف الحقيقة. لقد صار الزمن جزءاً من النجاة؛ فالذي يتباطأ في ساعة الرحيل قد يدركه ما أمر بالفرار منه. وحين تكون أوامر الله محددة بموعده، فإن الإيمان لا يظهر في الاقتناع بها وحده، بل في سرعة تنفيذها.

السرى: خروج في ستر الليل

والإسراء سير الليل؛ واختيار الليل للخروج يحمل في ظاهره معنى الستر والهدوء والابتعاد عن أعين القوم. كانوا قد عمّوا عن بلوغ بيت لوط، والمدينة غارقة في غفلتها، بينما بدأ البيت المؤمن رحلته الأخيرة خارج المكان.

خرج لوط في الظلام، لكن طريقه كان إلى النور؛ وبقي القوم ينتظرون الصباح، لكن صباحهم كان يحمل الهلاك. وهكذا لا تُقاس حقيقة النور والظلمة بما تراه العين؛ فقد يمشي المؤمن في ليل كثيف وهو على هدى، ويستقبل المجرم الصباح وهو داخل إلى نهايته.

ولم يقل النص: أسر بأهلك في الليل فحسب، بل قال: ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾؛ أي في جزء منه. وفي التعبير إحساس بأن الليلة قد قُسمت بين مشهدين: جزء للنجاة والخروج، ثم بقية تنتظر اكتمال الموعد. كل شيء يجري بتقدير؛ فلا العذاب يسبق خروج المؤمنين، ولا يتأخر بعد حلول أجله.

وما أشد وقع هذه الرحلة على النفس البشرية! كان على لوط أن يوقظ أهله، وأن يخبرهم بأن عليهم مغادرة موطنهم في الليل، من غير أمتعة تثقل سيرهم، ومن غير وداع طويل، ومن غير التفات إلى ما يتركون. البيوت التي عاشوا فيها، والأشياء التي ألفوها، والطرق التي عرفوها، كلها ستصبح بعد ساعات جزءاً من ماضٍ مطوي.

غير أن المؤمن حين يختار بين المكان وأمر الله لا يتردد في حقيقة الاختيار، وإن تألم قلبه. فالأوطان عزيزة، لكن الذي وهبها هو الأعز، والبيوت محبوبة، لكن البيت الذي يعصى الله بالبقاء فيه بعد أمره بالخروج لا يعود موطن نجاة. ليست الأرض هي التي تمنح الإنسان أمنه من ذاتها؛ الأمن هبة من الله، وقد يجعل صحراء الليل أمناً من مدينة مغلقة الأبواب.

### ﴿وَاتَّبِعْ أَذْبَارَهُمْ﴾

قالت الملائكة للوط: ﴿وَاتَّبِعْ أَذْبَارَهُمْ﴾؛ أي سر خلف أهلك.

كان لوط طوال حياته النبوية أمامهم يقودهم إلى الحق، لكنه في رحلة النجاة أمر أن يكون خلفهم؛ ليجمعهم بعينه، ويحرس خطواتهم، ويتأكد أن أحداً لم يتأخر أو ينفصل عن القافلة. القائد لا يكون في المقدمة دائماً؛ قد يكون موضعه في المؤخرة حين تحتاج الجماعة إلى من يحمي ظهرها ويرد المتخلف إليها.

وفي الأمر لمسة عناية ببيت النبوة؛ فالرحلة ليست فراراً مضطرباً يركض فيه كل إنسان لنفسه، وإنما خروج منظم: الأهل في المقدمة، ولوط وراءهم، والوجهة حيث يأمر الله. حتى في ساعة العذاب لا تغيب التربية، وحتى في لحظة الهرب يبقى النبي مسؤولاً عن أهله.

إن النجاة الفردية لا تكفي صاحب الرسالة؛ فهو لا يقول: نفسي نفسي، بل يحمل من استجاب له، ويتبع أدبارهم، ويجعل نفسه أقرب إلى الخطر منهم. وهذه صورة أخرى من بطولة لوط؛ فالرجل الذي وقف عند باب بيته ليحمي ضيوفه يقف الآن خلف أهله ليحمي مسيرهم.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾

ثم جاء النهي الصارم:

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾.

وفي التنكير والشمول حسم لا يستثنى متردداً: لا يلتفت أي واحد منكم. والمقصود أولاً النهي الحقيقي عن الالتفات إلى ما يجري خلفهم، فعليهم أن يسرعوا في طريق النجاة، وألا ينشغلوا بمشهد العذاب، وألا يعرضوا أنفسهم للخطر.

لكن حركة الجسد هنا تكشف كذلك عن امتحان القلب؛ فالالتفات يبدأ في الباطن قبل أن يظهر في العنق. قد تخرج القدم من المكان ويبقى الحنين إليه يشد الروح إلى الخلف، وقد يطيع الإنسان أمر المفارقة ظاهراً بينما يحمل في داخله ولاءً لما فارقه. لذلك جاءت الرحلة مطالبةً بخروج كامل: خروج الجسد من حدود القرية، وخروج الإرادة من أسرها، وخروج القلب من الانتماء إلى القوم ومنظومتهم.

وليس كل التفات مذموماً، فالإنسان يلتفت إلى ماضيه ليتعلم، ويتذكر النعمة ليشكر، ويتدبر العاقبة ليعتبر. لكن الالتفات المنهي عنه هو الالتفات الذي يعطل الطاعة، أو يوقظ الحنين إلى الباطل، أو يربط القلب بما قضى الله بمفارقه. حين يقول

الله: امض، يصبح الوقوف نوعاً من الرجوع، ويصبح التعلق بما خلفك خطراً على ما أمامك.

كان على الناجين ألا يجعلوا فضولهم أقوى من أمر الله؛ فليس كل مشهد ينبغي للإنسان أن يراه، ولا كل نهاية مأذوناً له أن يتفرج عليها. وقد تكون السلامة في أن تمضي دون أن تسأل عينك عما يحدث وراءك، لأن الله أخبرك بما يكفي لهدايتك.

وفي هذا أدب من آداب النجاة: أن المؤمن لا يقف على حافة هلاك الآخرين متشفقاً أو مستمتعاً بالمشهد؛ يخرج بقلب خائف شاكر، ويعلم أنه لم ينج بقوته، وإنما برحمة الله. والذي يرى نفسه أفضل من الهالكين لذاته قد يحمل في قلبه بذرة هلاك أخرى؛ أما الذي يعرف فضل ربه، فإنه يمضي مطرقاً، لا ملتفتاً إلى الوراء إلا بعبارة مأذونة لا بشماتة.

امرأة لوط: جسد قريب وقلب في الجهة الأخرى

جاء الاستثناء المؤلم:

﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾.

وفي قراءة بناء الجملة وتفسير الاستثناء تفصيل معروف عند أهل العلم؛ فقيل: إنها مستثناءة من الإسراء بالأهل، أي لا يخرج بها لأنها باقية مع القوم، وقيل: إنها خرجت ثم التفت فأصابها ما أصابهم. والنتيجة التي يقررها القرآن بوضوح لا تختلف: لم تكن من الناجين، وكان مصيرها مع القوم الذين اختارت صفهم.

وقد سبق الحكم عليها قبل تلك الليلة:

﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَائِبِينَ﴾.

والغابر هو الباقي بعد ذهاب غيره؛ فهي باقية في أرض العذاب حين يخرج بيت الإيمان، وبقية في صف القوم حين يفارقهم لوط. والمفارقة أن البقاء الذي اختارته صار هلاكاً، بينما الخروج الذي قد يبدو فقدماً صار نجاة.

لم تُهلك لأنها زوجة لوط، ولم تنج لأنها زوجة لوط؛ فقد سقط اعتبار العلاقة حين خالفت في الإيمان. إن قرب النسب لا يغير حكم القلب، ومجاورة النور لا تنفع من يغمض عينيه عنه. كانت تسمع صوت النبوة قريباً، وترى حياة الطهر من داخلها، لكنها لم تسمح لذلك القرب أن يتحول إلى إيمان.

ولعل أخطر ما تكشفه قصتها أن الإنسان قد يتلقى الحقيقة كل يوم حتى يألف صوته دون أن يدخل معناها إلى قلبه. ليست كثرة السماع هداية بذاتها؛ قد يزيد الدليل وضوحاً وتزداد النفس إعراضاً إذا لم تتواضع له. وكم من بعيد بلغه من النور شعاع فاتبعه، وكم من قريب عاش بجواره ثم اختار الظلمة!

وكان من الممكن أن تكون امرأة لوط أول المؤمنين به وأقوى أعوانه؛ فهي تعرف صدقه، وترى صبره، وتعيش المحنة معه. لكنها جعلت معرفتها بأحوال البيت وسيلةً للانحياز إلى القوم. ولهذا كانت خيانتها أشد؛ فالخيانة ليست مجرد مخالفة شخص قريب، بل استعمال القرب ضد الحقيقة التي كان ينبغي أن يحرسها.

إن البيوت لا تُبنى بالجدران وحدها، بل بوحدة الوجهة. وقد يجتمع جسدان تحت سقف واحد بينما تسير الروحان إلى مصيرين مختلفين. كان لوط يتجه إلى الله، وكانت امرأته متعلقةً بالقوم؛ فلما جاءت ساعة الفصل، جمع الله كل قلب بمن والاه.

﴿وَأَمْضُوا حَيْثُ تَوَمَّرُونَ﴾

لم تعطهم الملائكة في العبارة القرآنية مجالاً لصناعة وجهة من أهوائهم:

﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾.

المضي حركة مستمرة لا توقف فيها ولا تردد. وليس المهم أن يعرف الناجون كل تفاصيل المكان الذي يقصدونه، بل أن يمشوا إلى الجهة التي يؤمرون بها. إن أمر الله لا يدهم على الخروج من الهلاك فحسب، بل يرسم لهم طريق ما بعد الخروج؛ فالهداية ليست أن تقول للإنسان: اترك الباطل، ثم تتركه تائهاً، وإنما أن تنقله من أرضه إلى أفق آخر يختاره الله له.

والآية لا تقول: امضوا حيث تشتهون بعد أن نجيتم، بل: ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾. فالعبد لا ينتقل من عبودية الفساد إلى عبودية الهوى، وإنما من طاعة أمر إلى طاعة أمر. النجاة نفسها جزء من العبودية؛ لها طريقها ووقتها وأدبها.

وقد يظن الإنسان أن مرحلة ما بعد الخطر ملك له يتصرف فيها بلا هداية، لكن المؤمن يظل محتاجاً إلى أمر الله في السعة كما احتاج إليه في الشدة. الذي أنقذك من الخلف هو الذي يعلم أين ينبغي أن تتجه في الأمام؛ فلا تجعل الخلاص من المحنة بداية ضياع جديد.

الإخبار بالحكم قبل وقوعه

قال تعالى:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي أوحينا إليه وأعلمناه إعلاماً حاسماً لا تردد فيه. لم يخرج لوط يظن أن العذاب احتمال؛ لقد خرج على يقين بأن أمر القوم انتهى، وأن آخرهم مستأصل عند الصباح.

والدابر هو الآخر الذي يأتي في دبر القوم؛ وقطع الدابر يعني الاستئصال الذي لا يترك لقوة الإفساد امتداداً. لم تكن العقوبة تصيب رأس الفساد وترك نظامه يعيد إنتاج نفسه، بل تقطع آخره بعد أن صار القوم كتلة متواطئة لا يظهر فيها صوت رشد.

وقوله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يقربهم في المشهد، كأنهم ما يزالون عند الباب يندفعون، بينما الحكم عليهم قد صدر. هم يرون أنفسهم قوة حاضرة، لكن الوحي يراهم تاريخاً انتهى قبل أن يشعر أصحابه بانتهائه. وما أكثر ما يعيش الباطل لحظات قوته الأخيرة وهو يتوهم أنها بداية انتصاره!

أما ﴿مُصْبِحِينَ﴾ فتكشف موعد النهاية: عند دخول الصباح. وهنا يلتقي الأمران في مسار واحد؛ لوط يخرج في الليل، والقوم ينتظرهم الصبح. الليل مهلة النجاة، والصباح ميقات الحكم. وبينهما ساعات قليلة تفصل عالماً عن عالم، ومصيراً عن مصير.

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾

قالت الملائكة للوط:

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

ربما استعجل لوط زوال الخطر، أو خشي أن يدركوه قبل أن يبتعد، فجاءه التثبيت: الموعد الصبح، والصبح قريب. وهذه الجملة ليست تحديداً للزمن فحسب، بل تضميد لقلب أرهقه الليل.

﴿الْيَسَّ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؛ كل ليل مهما امتد يحمل في جوفه صبحه، وكل محنة مؤقتة وإن بدا للمبتلى أنها تستغرق عمره كله. غير أن قرب الفرج لا يعني أن يترك الإنسان السير؛ كان الصبح قريباً، لكن لوطاً مأموراً بأن يسري. الوعد لا يلغي العمل، واليقين بالنجاة لا يعني من اتخاذ طريقةها.

والقرب في ساعات الشدة ليس مجرد قياس زمني؛ فقد تكون ساعات الليل القليلة أثقل على النفس من أعوام، لكن كلمة الله تقصر المسافة في القلب قبل أن تنقضي في الواقع. من علم أن للظلمة نهاية محددة، لم تعد الظلمة عنده فضاءً بلا حدود.

وما أبلغ أن يكون الصبح نفسه نجاةً لقوم وعذاباً لآخرين! الشمس واحدة، واللحظة واحدة، لكن اختلاف المواقف جعلها بداية حياة لهؤلاء ونهاية حياة لأولئك. ليست الأزمنة بذاتها مبشرة أو مخيفة؛ إنما يستقبل كل إنسان الزمن بما قدمه داخله. الصبح الذي ينتظره المؤمن بوصفه فرجاً قد يفاجئ المجرم بوصفه موعداً.

الخروج من غير وداع

مضت قافلة لوط في الليل، ولم يذكر القرآن أنها ودعت المدينة أو حملت من متاعها شيئاً. وحين يسكت النص عن التفاصيل، يبقى المشهد في جلاله: خطوات قليلة تمضي في العتمة، وقرى خلفها لا تدري أن آخر بيت مؤمن قد خرج منها.

كم كان ذلك الخروج صامتاً في الأرض، عظيماً في ميزان السماء! لم تدق له الطبول، ولم تفتح له المدن أبواب الاحتفال، لكنه كان الحد الفاصل بين زمنين. بخروج لوط انتهى حضور النذير، وسقط آخر حاجز بين القوم وبين ما استدعوه لأنفسهم.

لقد قالوا من قبل: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾، وها هم آل لوط يخرجون، لكن لا بالطريقة التي أرادها القوم. أرادوا إخراجهم انتصاراً للفاحشة، فجعل الله خروجهم نجاةً للطهارة وإيذاناً بهلاك من أخرجهما. وقد يفرح المجتمع الفاسد حين يغادره صوت الحق، ظاناً أنه تخلص من الإزعاج؛ ولا يدري أن بقاء الصوت كان أمناً له، وأن خروجه قد يكون إعلاناً بانتهاء الفرصة.

قالوا: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، فأخرج الله المتطهرين من بينهم قبل أن يطهر الأرض من فساد القوم. خرج آل لوط يحملون طهارتهم، وبقي أهل القرية مع ما اختاروه؛ وفي الصباح وجد كل فريق ثمرة اختياره.

#### النجاة ليست شهادة بالكمال الذاتي

ومع أن القرآن يبرز نجاة لوط وأهله المؤمنين، فإنه لا يجعل منها ميداناً للتعالي. لقد نجوا برحمة الله؛ فالذي أرسل الملائكة، وحدد الليل، وأعمى المعتدين، وأرشد إلى الطريق، وضبط موعد العذاب، هو الله. لم يكن لوط يملك وحده خطة الإفلات، ولم يكن أهل بيته قادرين على معرفة الغيب، بل اتبعوا الأمر فحملتهم الطاعة إلى النجاة.

وهذا معنى ينبغي أن يصحب كل ناج: لا تقل إنني نجوت لأنني أذكرى من الهالكين، بل لأن الله هداك لما ضلوا عنه وثبتك حين زلوا. وكلما ازداد شعور

الإنسان بالفضل الإلهي، ازداد تواضعاً وخوفاً على نفسه؛ فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، والثبات عطية تحتاج إلى شكر وسؤال دائم.

إن قصة امرأة لوط، الواقعة على الطرف الآخر من البيت، تمنع الإنسان من الاغترار بالمكان والصحبة والنسب؛ وقصة لوط تمنعه من اليأس بسبب القلة والغربة. بينهما تقيم القصة ميزاناً بالغ الدقة: لا يضررك أن تكون وحدك إذا كان قلبك مع الله، ولا ينفعك أن تكون في بيت نبي إذا كان قلبك مع المفسدين.

حين تغادر الرحمة مكاناً

كان لوط رحمةً لقومه ما دام يدعوهم، وكانت كلماته فرصةً، وإن ضاقوا بها. وحين خرج، خرجت معه آخر دعوة حية في المدينة. بقيت الجدران، وبقيت الطرق، وبقي النادي، وبقي الذين كانوا يملؤون المكان ضجيجاً، لكن المعنى الذي كان يمنحهم مهلةً قد غادر.

وهنا تبدو القرية في أشد حالات فراغها: ليس الفراغ أن تخلو البيوت من سكانها، بل أن تخلو المدينة من شاهد يقول الحق. وقد تكون الأرقعة مزدحةً والأسواق عامرةً، لكنها في ميزان المصير أرض خالية إذا لم يبق فيها ضمير يقاوم الفساد.

مضى لوط حيث أمر، ولم يلتفت. وخلفه كانت المدينة تدخل الساعات الأخيرة من ليلها؛ ليل حسبه القوم كغيره من الليالي، وربما عادوا بعد طمس أعينهم يتوعدون لوطاً وضيوفه، وهم لا يعلمون أن القضية خرجت من أيديهم، وأن البيت الذي أرادوا اقتحامه صار خالياً، وأن الفجر القادم لا يحمل لهم يوماً جديداً.

كانوا قد استعجلوا العذاب قائلين: ﴿إِنَّا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾،  
وها هو العذاب يأتي في الوقت الذي حدده الله، لا في الوقت الذي اقترحوه. إن  
تأخره لم يكن عجزاً، ومحيطه لم يكن انفعالاً؛ كان موعداً مقدراً منذ أن علم الله أن  
القلوب قد أغلقت أبوابها، وأن الحجة تمت، وأن بيت الإيمان خرج من الأرض.  
وبدأ الصبح يقترب.

صبحٌ ستقلب فيه الجهات، وترتفع فيه القرى ثم تهوي، وتمطر السماء ما لم تعتده  
الأرض، ويصبح المكان الذي كان شاهداً على الفاحشة آيةً باقية للمعتبرين.

## الفصل السادس

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا  
حِينَ سَبَقَ انْقِلَابُ الْمَوَازِينِ انْقِلَابَ الْقُرَى

لم يكن الصبح الذي وُعد به قوم لوط صباحاً يولد فيه يوم جديد، بل كان الحد الذي تنتهي عنده أيام كاملة من الإهمال والإنذار. أشرقت أول خيوطه على قوم يظنون أن المدينة ما تزال مدينتهم، وأن البيوت لا تزال ثابتة تحت أقدامهم، وأن لوطاً هو الضعيف الذي خرج في الليل، بينما كانوا هم الباقين أصحاب الأرض والعدد والسلطان.

لكنهم لم يدركوا أن لوطاً حين غادر لم يخرج مطروداً، بل خرج منجياً بأمر الله، وأن بقاءهم لم يكن ثباتاً، بل انتظاراً للوعد. لم يكن الخارج هو المهزوم، ولا الباقي هو المنتصر؛ فقد كانت الظواهر ترسم صورة، وكان الغيب يعد صورة أخرى ستكشف عند الصباح.

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَجَاجٍ مُّنْضُودٍ ۝۶﴾

مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝۷

تبدأ الآية بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾. لم يقل: فلما جاءت الكارثة، أو وقعت المصادفة، أو اضطربت الطبيعة؛ بل نسب الحدث إلى أمره سبحانه، ليعلم الإنسان أن

ما وقع لم يكن فوضى خارجةً عن الحكمة، وإنما حكماً إلهياً جاء بعد أن اكتملت أسبابه الأخلاقية، واستنفدت الدعوة غايتها، وفُصل المؤمنون عن المجرمين.

والأمر في هذا السياق ليس كلمةً تحتاج إلى زمن كي تبحث عن وسيلة تنفيذها؛ فإذا جاء أمر الله جاءت معه القدرة، ولم يحتاج إلى عون ولا ممانعة. وقد ظل القوم أوعاءاً يرون نظام الكون مستقراً، فتوهوا أن هذا الاستقرار ملك لهم، وأن الأرض التي تحملهم لا يمكن أن تتقلب عليهم، وأن السماء التي تظلمهم لن تصبح مصدر عذاب. لكن الذي أقام النظام قادر على أن يجعل عناصر الأمان نفسها أدوات للحكم حين يأتي أمره.

إن انتظام الكون رحمة، وليس قيداً على قدرة الله؛ والأرض لا تحمل العاصين استقلالاً عن مشيئته، والسماء لا تمسك ما فيها بذاتها. يعيش الإنسان بين نعم تحيط به من كل جانب، ثم يطول عليه الأمد حتى ينساها، ويظن أن ثباتها حق مكتسب لا يزول. فإذا جاء أمر الله، اكتشف أنه كان يعيش كل لحظة داخل قبضة القدرة، وأن الطمأنينة التي اغتر بها لم تكن ضماناً ضد العدل، بل مهلةً من الرحمة.

﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾

هذه العبارة من أشد صور العقوبة تناسباً مع طبيعة الجريمة:

﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾.

انقلبت القرى من أعلاها إلى أسفلها، لكن هذا الانقلاب المادي لم يكن إلا الخاتمة المرئية لانقلاب أعمق وقع قبل ذلك في القيم والنفوس. لقد جعل القوم الشهوة فوق الهداية، والمنكر فوق المعروف، والكثرة فوق الحق، والسخرية فوق

الطهارة، والعدوان فوق المروءة؛ فلما قلبوا الموازين التي تقوم عليها إنسانية الإنسان، جاءهم عذاب يناسب حالهم: انقلب المكان كما انقلب الميزان.

كان ينبغي أن يكون الوحي في الأعلى يقود الرغبة، فجعلوا الرغبة في الأعلى تقود العقل. وكان ينبغي أن تُحترم الطهارة، فجعلوها تهمةً تستحق الطرد. وكان ينبغي أن يُكرم الضيف، فجعلوه هدفاً للاعتداء. وكان ينبغي أن يكون النادي موضع رشد وتشاور، فجعلوه مسرحاً للمنكر. وحين صار الأسفل أعلى في عالم القيم، جعل العالي سافلاً في عالم الأرض.

وليس معنى هذا أن العقوبة مجرد صورة أدبية ترمز إلى انقلابهم؛ فالقرآن يخبر عن حدث حقيقي وقع بقدرته الله. لكن التناسب بين الجرم والجزاء يفتح للقلب باب الاعتبار: فالله لا يقص علينا شكل العذاب لنرى القوة وحدها، بل لنرى العدالة والحكمة في اختياره.

وتأمل قوله: ﴿جَعَلْنَا﴾؛ فالقرى بقوتها وعمرانها وكثرة أهلها صارت مفعولاً بها أمام إرادة الله. لم يقل النص إنهم استطاعوا مقاومة الانقلاب أو تأخيرها، ولم يمنح المشهد مساحةً لمعركة متكافئة؛ لأن المسافة بين قوة الخلق وقدرة الخالق لا تقبل المقارنة. القوة التي استعملوها في إذلال الضعيف لم تستطع أن تدفع عنهم ذرةً من الحكم حين جاء.

لقد وقف لوط ليلَةً يمتنى قوةً ترد القوم عن بيته، وكانوا أمامه كثرةً لا يقدر عليها، فلما جاء أمر الله ظهر الحجم الحقيقي لتلك الكثرة. الجموع التي أرعبت نبياً عند بابه لم تستطع أن تثبت بيوتاً على قواعدها، والقوة التي ظنت أنها تحكم المدينة لم تكن تملك من أمر المدينة شيئاً.

## الصيحة عند الإشراق

قال تعالى في سورة الحجر:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿١٠﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيَّهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ

سَجِيلٍ﴾.

﴿مُشْرِقِينَ﴾؛ أي داخلين في وقت الشروق. الموعد الذي قبل للوط إنه قريب قد حضر، والصبح الذي ظن القوم أنه يفتح لهم يوماً جديداً أغلق عليهم أبواب الزمن. والصيحة صوت قاهر يأخذ السامعين بغتةً، فلا تبقى معه قدرة على تدبير أو مهرب. وإذا كان القوم قد ملؤوا ناديتهم بأصوات المنكر، وسخروا من صوت النبوة، وتحذوا لوطاً أن يأتيهم بالعذاب، فقد جاءت الصيحة التي أسكتت كل صوت. إن هناك أصواتاً يمهلهها الله حتى تفرغ ما عندها، ثم تأتي كلمة الحق التي لا تستطيع الضوضاء أن تغطيها. وقد بدا صوت لوط زمناً ضعيفاً وسط صخب القوم، لكن نداءه كان متصلاً بالسماء؛ أما أصواتهم، على كثرتها، فكانت محصورةً داخل لحظتها. انتهى الضجيج وبقيت كلمات النبي قرأناً يتلى، وسقطت قوة الجماعة وبقي موقف الرجل الوحيد درساً للأجيال.

ولم تأخذهم الصيحة في ظلام يخفي عنهم المشهد، بل ﴿مُشْرِقِينَ﴾؛ حين يبدأ الضوء في الانتشار. كأن النور جاء لا ليهديهم بعد أن رفضوا الهداية، بل ليكشف النهاية. وحين لا ينتفع القلب بنور الوحي، لا يغنيه نور الشمس عن العمى؛ فقد كانت الدنيا تشرق حولهم، لكن مصيرهم قد أظلم بما صنعت أيديهم.

وفي سورة القمر:

﴿وَلَقَدْ صَبَحَهمْ بُكَرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿١٠﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِرِ﴾.

﴿صَبَحَهُمْ﴾؛ أتاهم في وقت الصباح، وفي الفعل إحساس بأن العذاب هو الذي قصدهم وطرقهم عند أول النهار. لم يضل طريقه، ولم يقع على غير أهله، بل وصل إلى الذين أُنذروا به.

أما وصفه بأنه ﴿مُسْتَقِرٌّ﴾ فينزح من نفوسهم وهم العارض الذي يمر سريعاً ثم تعود الحياة كما كانت. لقد كان عذاباً ثابت الوقوع، مستقر الأثر، لا يدفعونه ولا يفلتون منه. ظنوا أن شهواتهم هي الحقيقة المستقرة، وأن دعوة لوط صوت عابر، فإذا بما ألفوه يزول في لحظة، وبما كذبوا به يصبح هو الحقيقة التي لا مرد لها.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾

لم يقتصر العذاب على انقلاب القرى، بل قال تعالى:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾.

والمطر في أصل ما يألفه الإنسان رحمة؛ تنتظره الأرض العطشى، وتحيا به الزروع، وتستبشر به النفوس. لكن قوم لوط قلبوا موارد النعمة في حياتهم، فجاءهم من جهة المطر ما يناقض ما ينتظره الناس منه. نزلت عليهم الحجارة بدل الماء، والعقوبة بدل الحياة.

والقرآن يستعمل فعل ﴿أَمْطَرْنَا﴾ في رسم كثافة النزول واتباعه؛ فلم تكن حجارة ضلت طريقها أو حادثة منفردة، بل مطراً موجّهاً يغطي موضع الجريمة. والسماء التي استعجلوها أن تأتيهم بالعذاب أجابتهم في الموعد الذي اختاره الله، لا في الموعد الذي اختاروه.

أما السَّجِّيل فقد قيل فيه: هو الطين المتحجر أو المطبوخ حتى صار شديداً، وهو معنى تؤيده آية الذاريات: ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾. وكأن المادة التي خُلق منها الإنسان في أصل نشأته تحولت عليهم—بأمر الله—إلى أداة عقوبة حين انخرفوا عن مقتضى إنسانيتهم.

ليس في الحجارة من ذاتها قوة تختار هدفها، لكنها حين تكون جنداً من جنود الله تتحرك وفق أمره. فالكون كله صالح لأن يكون باب رحمة أو أداة عدل؛ الماء ينجي موسى ويغرق فرعون، والريح تحمل البشري وقد تدمر قومًا، والنار تحرق وتكون بردًا وسلامًا، والطين يكون أصل خلق الإنسان ويكون حجارةً على المفسدين. ليست الأشياء مستقلةً بأثرها، بل هي تحت سلطان خالقها.

### ﴿مَنْصُودٌ﴾

وصف الله الحجارة بقوله:

﴿مِنْ سَجِّيلٍ مَنْصُودٍ﴾.

والمُنْضُود هو المتراكم أو المتتابع الذي نُظِمَ بعضه فوق بعض. وفي الوصف نفي للعشوائية؛ فالعقوبة ليست اضطراباً بلا تقدير، وإنما جارة مهيأة متتابعة، كأنها كانت معدةً تنتظر الأمر.

وقد عاش القوم زمناً يصدون خطاياهم خطيئةً فوق خطيئة: فاحشة، ومجاهرة، وقطع سبيل، ومنكر في النادي، وطرده للطاهرين، ومراودة عن الضيف، وتحدّ بالعذاب. لم تكن نهايتهم بسبب لحظة منفردة، بل بسبب بناء متراكم من الإفساد؛ فجاءتهم جارة منضودة، في تناسب يوقظ القلب إلى أن الأعمال هي الأخرى تتجمع، وأن الذنب الذي يراه صاحبه منقضيّاً قد ينضم إلى غيره حتى يصنع مصيراً كاملاً.

إن الإنسان قد يستهين بالفعل لأنه صغير في نظره أو لأنه انتهى زمانه، لكنه لا يدري أين يذهب أثره. الأعمال لا تتبخر؛ منها ما تحوه التوبة، ومنها ما يبقى شاهداً، ومنها ما يلد أعمالاً تشبهه. وقوم لوط لم يتوبوا، بل راكموا حتى لم يعد في البنية كلها موضع صالح للإصلاح.

﴿مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾

ثم جاء الوصف الذي يملأ المشهد بالدقة:

﴿مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

أي معلّمة معدة، لها سمتها وتقديرها، لا تنزل بلا تمييز. وقد ورد اللفظ كذلك في سورة الذاريات:

﴿مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾.

ليست الحجارة موجهةً إلى مجهولين، وإنما ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾؛ لأولئك الذين سَمَّاهم لوط من قبل: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾. يلتقي وصف الجريمة بوصف المستحقين للعقوبة، فتظهر الصلة بين أول القصة وآخرها. لم يكن الإسراف كلمةً وعظيةً قالها نبي ثم ضاعت، بل كان تشخيصاً للطريق الذي انتهى بهم إلى الحجارة المسومة.

وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يرد الأمر كله إلى علم الله وتقديره. ما كان عند القوم مجهولاً كان عند الله معلوماً، وما رآوه بعيداً كان في تقديره معداً، وما ظنوه تهديداً بلا موعد كان مكتوباً بحدوده وزمانه وأهله.

وفي نسبة الرب إلى المخاطب—﴿رَبِّكَ﴾—ثبيت للنبي ﷺ ولكل من يتلو القرآن؛ فالرب الذي نصر لوطاً وأهلك المفسدين هو ربك، وسننه لا تضع، وإن اختلفت الصور والأزمنة. لكنه ثبيت لا يمنح أحداً حق تعيين العقوبات على الناس أو استعجالها؛ فالحجارة كانت عند ربك، لا عند البشر، والحكم له وحده، والعقوبة وقعت بوجي منه بعد حجة أقامها نبي مرسل.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾

تكررت العبارة في أكثر من موضع:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾.

لم يقل: فسَاءَ المطر فحسب، بل أضافه إلى ﴿الْمُنْذَرِينَ﴾؛ لأن العذاب جاء بعد الإنذار. وهذه الإضافة تمنع قراءة العقوبة منفصلةً عن تاريخ الدعوة كله. قبل المطر

كانت هناك كلمات لوط، وأسئلته، ومجادلته، وندأؤه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، وصرخته: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾. كان بإمكانهم أن يوقفوا مسار النهاية بالتوبة، لكنهم حولوا الإنذار نفسه إلى مادة للسخرية والتحدي.

والإنذار رحمة قبل أن يكون تهديداً؛ لأنه يخبر الإنسان بالخطر قبل أن يبلغه، ويمنحه فرصة لتغيير الطريق. ومن يرفض الإنذار لا يستطيع أن يحتج بعد وقوع العاقبة بأنه لم يعلم. ولذلك كان مطرهم سيئاً لأنه مطر قوم سمعوا التحذير ثم أصروا، لا قوم أخذوا بلا بيان.

ويظهر من هذه العبارة أن المندر قد يؤدي واجبه كاملاً ولا يرى في حياته استجابةً واسعة، لكن قيمة البلاغ لا تتحدد بعدد المستجيبين وحده؛ فقد يقيم الحجة، ويحفظ معنى الحق، وينجي بيتاً واحداً، ويجعل موقفه شاهداً على أن الباطل لم يمر بلا مقاومة. كان لوط قليل الأتباع، لكن رسالته لم تفشل؛ فالفشل أن يخون الرسول ما كُلف به، أما قلة من استجاب فلا تنقص من صدق البلاغ.

﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾

قالت الملائكة:

﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

والرجز عذاب واضطراب شديد. وقد بينت الآية سببه: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. والباء للسببية؛ أي بسبب خروجهم المستمر عن طاعة الله. لم تنسب الآية هلاكهم إلى هويتهم القومية أو مكانهم أو خلقهم، بل إلى فعل اختاروه واستمروا عليه.

وقوله: ﴿كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يدل على التجدد والاستمرار؛ فالفسق لم يكن لحظةً ندموا بعدها، وإنما كان طريقاً يمشون فيه. والفسق في أصله خروج الشيء عن قشرته وحده؛ فكأنهم خرجوا عن السياج الذي يحفظ إنسانيتهم، حتى صاروا مكشوفين أمام قوى الانهيار التي كانت الحدود تقيهم منها.

إن الحدود الشرعية ليست جدراناً أقامها الله ليضيق على الإنسان، بل حمى يحفظه. فإذا خرج منها ظن أول الأمر أنه اتسع، لكنه يكتشف أنه خرج من الأمان إلى العراء. كالثمرة يحفظها غلافها، فإذا تمزق قبل أوانه تعرضت للفساد؛ وكالنهر تمنحه ضفتاه وجهةً وقوةً، فإذا تحطمتا لم يتحرر الماء، بل تبدد وأغرق ما حوله.

﴿وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾

وقال سبحانه:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ نِعْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا كَذَلِكَ نُجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾.

والحاصب ريح تحمل الحصباء أو عذاب يرميهم بالحجارة. وفي قوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ معنى التوجيه المقصود؛ فكما أرسل الله لوطاً إليهم بالإنذار، أرسل عليهم الحاصب بعد تكذيبهم. رفضوا الرسول الذي جاء بالكلمة، فجاءهم المرسل الذي يحمل العقوبة. لكن الآية لا تذكر العذاب وحده؛ إنها تفتح في قلب المشاهد نافذة النجاة:

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾.

والسحر آخر الليل قبيل الصبح؛ اللحظة التي يشتد فيها الظلام ثم يبدأ بالتراجع. وفي هذا التوقيت معنى يناسب حالهم: نجوا عند الطرف الأخير من المحنة، حين كان الفجر قريباً والعذاب قريباً، لكن رحمة الله كانت أسبق إليهم.

ثم قال: ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾. لم ينسب نجاتهم إلى حسن الخطوة أو سرعة الخطوات، مع أن عليهم أن يخرجوا ويمضوا، بل نسبها إلى نعمته؛ لأن الأسباب لا تعمل إلا بإذنه، والطاعة نفسها توفيق من عنده.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾؛ والشكر هنا ليس كلمة يقولها اللسان فحسب، بل موقف حياة. كان لوط شاكراً لنعمة الفطرة فحفظها، شاكراً لنعمة الوحي فبلغه، شاكراً لحرمه الضيافة فدافع عنها، شاكراً لأمر النجاة فامتثل له. أما القوم فقد قابلوا نعم الخلق والجسد والأمن والمجتمع بالكفران والانحراف، فكانت العقوبة من جنس الموقف.

#### اجتماع صور العذاب

عرض القرآن عذاب قوم لوط في صور متعددة: الصيحة، وقلب القرى، ومطر الحجارة، والحاصب، والرجز النازل من السماء. وليست هذه الصور متعارضة، بل هي جوانب من عقوبة مركبة أحاطت بهم من جهات مختلفة؛ أخذتهم الصيحة، وقُلبت قراهم، وأتبعَت بالحجارة، فلم يبقَ لهم طريق نجاة.

وقد يناقش الناس كيف وقعت التفاصيل المادية، وما ترتيب كل صورة، وأين تقع تلك القرى على وجه التحديد؛ لكن القرآن لا يجعل هذه الأسئلة مركز العبارة. إنه يمنحنا من وصف الحدث ما يثبت حقيقته ويكشف هوله، ثم ينقلنا إلى السؤال

الذي من أجله قصه: ماذا فعل القوم حتى صاروا مثلاً خالداً للعاقبة؟ وكيف ينجو الإنسان من الطريق الذي سلكوه؟

إن تحويل القصة إلى بحث جغرافي محض قد يبعد القلب عن مرادها؛ فالعثر على آثار المكان لا ينفع من يحمل في نفسه أسباب هلاكه، وعدم معرفة الإحداثيات لا يمنع المؤمن من الاعتبار. الآية الأهم ليست حجراً يعثر عليه باحث في الأرض، بل ميزاناً يعثر عليه الإنسان في الوحي ثم يقيس به نفسه ومجتمعه.

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾

تأتي بعد وصف الحجارة عبارة تتجاوز القوم الغابرين إلى كل ظالم:

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾.

وقد حمل المفسرون الضمير على الحجارة أو القرى أو العقوبة؛ والمعنى الجامع أن ما وقع بقوم لوط ليس بعيداً عن الظالمين الذين يسلكون سبيلهم. ليست القصة صفحةً مغلقةً لا صلة لها بالحاضر، بل إنذار بأن الظلم يحمل في داخله قابلية العقوبة، وأن سنن الله لا تتحول إلى ملك حصري لأمة مضت.

لكن الآية لا تمنح البشر حق إسقاط عذاب قوم لوط على كل شخص أو حادثة بتعيين جازم، فالحكم على الوقائع الخاصة يحتاج إلى وحي لا نملكه. وإنما تمنحنا قاعدةً أخلاقية: لا يأمن الظالم مكر الله، ولا يظن أن مرور الزمن يلغي الحساب، ولا يتخذ إمهال الله دليلاً على الرضا.

وقوله: ﴿بَعِيدٌ﴾ لا يحدد صورة العقوبة ولا موعتها؛ فقد يعاقب الله في الدنيا، وقد يمهّل إلى الآخرة، وقد تكون العقوبة انهياراً داخلياً قبل أن تكون حدثاً خارجياً. لكن المؤكد أن الظلم لا يتحول إلى نجاة لمجرد أنه طال، وأن الحساب ليس بعيداً كما يتوهم من لا يرى إلا عمره القصير.

وفي اللفظ رهبة؛ فالآية لم تقل: وما هي من الكافرين ببعيد، بل قالت: ﴿مِنْ الظَّالِمِينَ﴾، لتربط الوعيد بصفة الظلم الواسعة. والظلم وضع الشيء في غير موضعه وتجاوز الحق؛ وقد ظلم قوم لوط فطرتهم، وظلموا أزواجهم، وظلموا المارة والضيوف، وظلموا لوطاً، وظلموا أنفسهم قبل ذلك كله.

عذاب الدنيا ليس نهاية الحساب

قد يرى القارئ هول العقوبة فيظن أن القصة انتهت بانقلاب القرى، لكن العذاب الدنيوي ليس نهاية الحساب؛ فهو علامة عاجلة، أما الجزاء الكامل ففي الآخرة. وقد كان هلاكهم في الدنيا شديداً، لكنه لا يغني عن موقفهم بين يدي الله. وهنا تظهر خطورة أن يحصر الإنسان نظره في العقوبات المشهودة؛ فقد يرى ظالماً لم تنقلب عليه أرض ولم تمطر عليه حجارة، فيتوهم أنه نجا. لكن القرآن يوسع أفق الزمن: ليست الدنيا محكمة الجزاء النهائي، ولا يلزم أن يرى كل إنسان نهاية عمله كاملة قبل الموت. يكفي أن الله يعلم، وأن الحساب آتٍ، وأن ما أخر لم يُهمَل.

وقوم لوط أنفسهم لم يهلكوا لأن الله عاجل كل مذنب في الدنيا بالعقوبة ذاتها، بل لأن قصتهم اختيرت لتكون آية ظاهرة، تُرى الناس في التاريخ نموذجاً من اقتران

الجرم بالعاقبة. أما سنن الحساب فأوسع من صورة واحدة؛ قد تأتي العقوبة صاعقةً، وقد تأتي متدرجةً، وقد يؤخر الله كل شيء إلى يوم لا يفلت فيه أحد.

سقوط القوة التي بلا أخلاق

قبل ساعات كان القوم قوةً اجتماعية تفرض إرادتها؛ يهنون لوطاً عن ضيافة العالمين، ويجتمعون عند بابه، ويطالبونه بأن يسلم لهم ضيوفه، ويهددونه بالإخراج. وعند الصباح لم يبق من سلطانهم شيء.

وهذا هو المصير الطبيعي للقوة حين تنفصل عن الأخلاق: قد تنتصر لحظةً على الضعيف، لكنها تفقد المعنى الذي يبرر بقاءها. القوة ليست ضماناً للحياة؛ فقد تصبح كثرتها نفسها سبباً في زيادة الطغيان الذي يستدعي النهاية.

كان لوط وحده في ظاهر الأمر، لكن الوحدة لم تضعفه أمام الله. وكانوا جميعاً، لكن الاجتماع لم يقوهم أمام أمر الله. إن معادلات الأرض ترى العدد والسلاح والعشيرة، أما ميزان السماء فيرى الحق والباطل، والعدل والظلم، والصبر والإفساد. وقد يتأخر ظهور الميزان الثاني حتى يظن الناس أن الأول هو الحقيقة كلها، ثم تأتي لحظة تكشف أن الحقائق التي لا تُرى كانت تحكم ما يرى منذ البداية.

الصباح الذي كشف الحقيقة

حين طلع الصباح، لم يصنع حقائق جديدة بقدر ما كشف الحقائق القديمة: كشف أن لوطاً لم يكن وحيداً، وأن القوم لم يكونوا أقوياء، وأن خروج المؤمنين لم يكن هزيمةً، وأن بقاء المجرمين لم يكن انتصاراً، وأن تأخر العذاب لم يكن رضا، وأن الطهارة التي سخروا منها كانت طريق النجاة، وأن الفاحشة التي اجتمعوا عليها كانت طريق الاستئصال.

هكذا يعمل الزمن في القصص القرآني؛ فهو لا يغير الحق والباطل، بل يكشف ما كان خافياً من عواقبهما. وقد تحتاج الحقيقة إلى صباح حتى تظهر، لكن تأخر ظهورها لا يعني غيابها.

انتهت المدينة التي أرادت إخراج الطاهرين، ونجا البيت الذي وصفوه ساخرين بأنه يتطهر. سقط النادي الذي جاء فيه المنكر، وانقطع الطريق عن الذين كانوا يقطعون السبيل، وطُمسَت العيون التي بحثت عن الفاحشة، وقُلِبَت الأرض تحت الذين قلبوا الفطرة، وأمطرت السماء حجارةً على من ظنوا أن السماء لن تجيب.

لكن القرآن لم يترك القصة مدفونةً تحت أنقاضها؛ جعل من المكان ومن الخبر آيةً باقية. فالقصة لا تريد منا أن نقف طويلاً أمام صورة الحجارة، بل أن نسأل: ما الذي بقي بعد سقوط القرية؟ وما الذي أراد الله للأجيال أن تراه في آثارها؟

لقد مضى القوم، لكن الطريق الذي كانت تمر به القوافل بقي يذكر العابرين. وبقي القرآن يقول:

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فليست كل عين تمر بالآية تراها، ولا كل قدم تعبر بالمكان تعتبر؛ إنما تنتفع بالآثار عقول تربط بين المشهد وسببه، وبين التاريخ وسنته، وبين ما وقع للغابرين وما يمكن أن يصنعه الأحياء بأنفسهم.

## الفصل السابع

وَلَقَدْ تَرَكَّا مِثْلَ آيَةٍ بَيِّنَةٍ  
حِينَ تَبَقَّى الْعِبرَةُ بَعْدَ أَنْ يَغِيبَ أَصْحَابُهَا

انتهى الصباح، وسكنت الصيحة، وتوقفت الحجارة، وغابت الوجوه التي كانت تملأ شوارع القرى وتزدحم عند باب لوط عليه السلام؛ لكن القصة لم تنته بانتها أصحابها. فقد شاء الله أن يبقى من آثارها ما ينقلها من حادثة وقعت في زمن غابر إلى آية تخاطب الأزمنة اللاحقة، وتضع كل جيل أمام السؤال نفسه: هل سيمر بالمشهد كما مر به الذين لا يعقلون، أم يقرأ في صمته ما لم يقرأه القوم في كلمات نبيهم؟

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ تَرَكَّا مِثْلَ آيَةٍ بَيِّنَةٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

لم يقل: تركّا منها أطلاً لحسب، ولا مجرد بقعة جغرافية تستوقف المسافرين، بل قال: ﴿آيَةً﴾. والأثر يصير آيةً حين يتجاوز ذاته إلى المعنى الذي يشير إليه؛ فالحجارة في ذاتها حجارة، والأرض أرض، وبقايا القرى أجزاء من مادة صامتة، لكن العقل المؤمن يقرأ فيها حديثاً عن العدل، وعن نهاية الاستكبار، وعن ضعف الإنسان حين يواجه أمر الله، وعن المصير الذي تصنعه الاختيارات الأخلاقية.

أما من يرى الأثر ولا ينتقل منه إلى المعنى، فقد رأى الشيء ولم ير الآية. فليست الآية فيما يقع تحت البصر وحده، بل في العلاقة التي يقيمها العقل بين ما وقع

وسببه، وبين الماضي والحاضر، وبين فعل الإنسان وسنة الله. وقد تمر العيون جميعاً بالمشهد نفسه، ثم لا يحمل منه العبرة إلا قلب واحد؛ لأن وضوح العلامة لا يغني عن فقد إرادة الاعتبار.

### ﴿آيَةُ بَيِّنَةٍ﴾

وصف الله الآية بأنها ﴿بَيِّنَةٌ﴾؛ أي ظاهرة الدلالة، تكشف أن ما حدث لم يكن نهايةً عادية لمدينة استهلكها الزمن، بل مصيراً استثنائياً بقي أثره شاهداً على جريمة القوم وعقوبتهم.

والبيان هنا ليس في شكل الأثر وحده، بل في الخبر الصادق الذي قصه القرآن؛ فقد يجادل الناس في تحديد بعض تفاصيل المكان، أو تتغير معارفهم بآثاره، لكن حقيقة القصة لا تتوقف على اجتهاد أثري متغير. القرآن هو الذي كشف لنا معنى ما وقع، وربط العذاب بفسق القوم وإجرامهم، وأخبرنا بنجاة لوط وأهله المؤمنين. ومن دون الوحي قد يرى الإنسان آثار الدمار، لكنه لا يعرف الرسالة التي تحملها.

ولهذا لا ينبغي أن ننقل مركز اليقين من خبر الله إلى فرضيات البشر؛ فما ثبت بالوحي لا ينتظر حجراً يُكتشف ليصبح حقيقة، ولا يسقط إذا اختلف الباحثون في تعيين موضعه. قد تؤنس الآثار المعرفة، وتفتح باباً للتأمل، لكن الإيمان بالقصة قائم على صدق القرآن، لا على خريطة يصيب واضعها أو يخطئ.

والقرآن نفسه لا يثقل القارئ بأسماء المدن وتفاصيل مواقعها؛ لأن المكان وسيلة إلى الاعتبار لا غايته. لو كان تحديد الإحداثيات شرطاً للهداية لفصلها الوحي، لكنه

أعطانا ما هو أبقي وأهم: طبيعة الفساد، وموقف النبي، ومسار المواجهة، وصورة النجاة، وعاقبة القوم.

إن الإنسان قد يعرف أين وقعت القصة ولا يعرف أين يقع هو منها، وقد يحفظ طريق القرى القديمة بينما يسير في الطريق الأخلاقي نفسه الذي سار فيه أهلها. وليس هذا هو العلم الذي يريده القرآن؛ فالمعرفة التي لا تغير موقف صاحبها قد تزيد معلوماته، لكنها لا تزيد بصيرته.

### ﴿لَقَوْمٌ يَعْقِلُونَ﴾

لم يجعل الله الانتفاع بالآية لكل من يمر بها، بل قال: ﴿لَقَوْمٌ يَعْقِلُونَ﴾.

والعقل في الاستعمال القرآني ليس آلة تجمع المعلومات ثم تقف عندها، بل قوة تربط المقدمات بالنتائج، وتمنع صاحبها من سلوك الطريق الذي عرف نهايته. فمن رأى عاقبة الظلم ثم واصل الظلم لا يكون قد عقل الآية، وإن استطاع أن يصفها وصفاً دقيقاً؛ لأن العقل سُمي عقلاً لما فيه من معنى المنع والربط، فهو يربط الفعل بعاقبته، ويمنع النفس من الاندفاع الأعشى.

وقد كان قوم لوط يملكون أذهاناً يدبرون بها معاشهم ويتحركون في مدينتهم، لكنهم وصفوا بالجهل وفقدان الرشد؛ لأن ذكاء الوسيلة لا يعوض فساد الغاية. قد يعرف الإنسان كيف يبلغ ما يريد، لكنه لا يسأل: هل ينبغي أن أريده؟ وقد يبدع في تنظيم حياته، لكنه يعجز عن تنظيم شهوته. وهذا ليس كمال العقل، بل تحوله إلى خادم لرغبات لا يراجعها.

العقل الذي يطلبه القرآن لا يسأل فقط: هل أستطيع؟ بل يسأل قبل ذلك: هل يرضى الله؟ وهل يليق بالإنسان؟ وما أثره في النفس والآخرين؟ وإلى أين ينتهي هذا الطريق؟ فإذا فصل الإنسان قدرته عن حكمته، صار أكثر قدرة على صناعة هلاكه.

ولهذا كانت الآية لقوم يعقلون؛ لأن العقل هو الذي يرى مدينةً انتهت فيقول: لم تكن قوتهم ضماناً، ولم تكن كثرتهم حجة، ولم يكن تأخر العقوبة نجاة، ولم يكن خروج لوط هزيمة. العقل يعيد ترتيب المشهد بعد أن خدعت ظواهره أصحابه.

الطريق الذي تمر به القوافل

قال تعالى:

﴿وَأَنْتُمْ لَتَمُوتُنَّ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ۖ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

كان المخاطبون يمرون بديار القوم في أسفارهم، يرون مواضعهم صباحاً وليلاً، حتى أصبح المرور متكرراً لا عارضاً. وفي تأكيد العبارة—﴿وَأَنْتُمْ لَتَمُوتُنَّ﴾—إزالة لكل ذريعة؛ فالآية ليست مخفية في مكان لا يبلغونه، بل تقع على طريقهم.

﴿مُصْبِحِينَ ۖ وَبِاللَّيْلِ﴾؛ أي تمرون بها في أوقات مختلفة، فتقع تحت أبصاركم

مرة بعد مرة. ومع ذلك جاء السؤال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. وهذا يعني أن تكرار رؤية الآية لا يضمن فهمها؛ فقد تكون العلامة على الطريق، لكن القلب لا يسافر إليها. وقد يحول الاعتياد أعظم المشاهد إلى أشياء عادية؛ يراها الإنسان كل يوم حتى يكف عن رؤيتها.

إن الخطر لا يكمن دائماً في غياب الدليل، بل في الألفة التي تسحب منه قدرته على الإيقاظ. يمر الرجل بالأطلال أول مرة فيرتجف، ثم يمر بها مرات حتى تصبح جزءاً من المشهد. وكذلك آيات القرآن؛ قد يسمعها القلب أول مرة فتزلزله، ثم يكررها اللسان دون أن تعبر إلى الضمير. ليست المشكلة في تكرار الآية، بل في أن الإنسان يتوقف عن استقبالها استقبالاً جديداً.

وسؤال القرآن: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لا يطلب منهم أن ينظروا إلى الماضي وحده، بل أن يعبروا منه إلى أنفسهم: إذا كانت القوة لم تمنع أولئك، فما الذي يؤمنكم؟ وإذا كان الإصرار قد انتهى بهم إلى تلك العاقبة، فلماذا تسلكون طريق الإصرار؟ وإذا كانت الفاحشة قد بدأت شهوةً ثم صارت ثقافةً ثم عذاباً، فأين ينبغي قطع الطريق قبل بلوغ نهايته؟

المروء الحقيقي على آثار الأمم ليس عبور الأقدام، بل عبور المعنى إلى القلب. وقد يكون الإنسان بعيداً عن المكان لكنه قريب من العبرة، وقد يمر فوق الأثر نفسه ولا يحمل منه شيئاً.

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾

قال تعالى بعد ذكر إهلاك قوم لوط:

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي إن مواضعهم على طريق ظاهر ثابت يمر به الناس. واختيار لفظ ﴿سَبِيلٌ﴾ شديد المناسبة لقصة قوم عوقبوا—فيما عوقبوا—لأنهم يقطعون السبيل؛ فقد قطعوا الطريق على الآمنين، ثم أبقى الله آثارهم على الطريق لتكون سبيلاً إلى العبرة.

أرادوا أن يجعلوا السبيل موضع خوف، فجعله الله بعدهم موضع تذكير. اعتدوا على العابرين، ثم صار العابرون يرون مصير المعتدين. وكأن الطريق الذي شهد جرائمهم تحول بعد زوالهم إلى شاهد عليهم.

ووصف السبيل بأنه ﴿مُقِيمٌ﴾ يحمل معنى الثبات والظهور؛ فالعبرة ليست حادثة سريعة الزوال، بل علامة قائمة في طريق الأجيال. لكن إقامة السبيل لا تنفع قلباً لا يقيم على التفكير؛ فكم من آية ثابتة والأعين عنها متحولة!

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. لم يقل هنا للعالمين جميعاً، بل للمؤمنين؛ لأن الإيمان هو الذي يجعل صاحبه يصدق خبر الله، ويرى في التاريخ فعله وحكمته، ويتلقى العاقبة بوصفها خطاباً له لا خبراً عن غيره.

المؤمن لا يقرأ القصة ليشعر بالتفوق على الهالكين، بل ليخاف على قلبه، ويشكر نعمة الهداية، ويراجع مقدار طاعته. يعلم أن الذي أهلكهم لم يظلمهم، وأن الذي نجى لو طاقادر على نصر المؤمنين، وأن أبواب الفتنة لا تُؤمن إلا بالثبات على أمر الله.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾

قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾

والمتوسم هو المتأمل الذي ينظر في العلامة فيستدل بها على ما وراءها، أو صاحب الفراسة الذي لا يقف عند ظاهر المشهد. واللفظ مشتق من السِّمة، وهي العلامة؛ فالمتوسم يقرأ السمات ولا يعبر عنها غافلاً.

قال سبحانه: ﴿لَا يَاتِ﴾ بالجمع، لأن القصة لا تحمل علامةً واحدة. في نجاة البيت المؤمن آية، وفي هلاك الكثرة آية، وفي قلب القرى آية، وفي الحجارة المسومة آية، وفي امرأة لوط آية، وفي وقفة لوط عند الباب آية، وفي مجادلة إبراهيم رحمةً بالقوم آية، وفي تحول الطهارة إلى تهمة آية.

والمتوسم لا يكتفي بمشاهدة النهاية، بل يعود إلى البدايات الدقيقة التي قادت إليها. يسأل: كيف بدأت الفاحشة؟ كيف خرجت من الخفاء؟ كيف دخلت النادي؟ كيف سكت المجتمع؟ كيف أصبح التطهر موضع سخرية؟ كيف تحول الساخرون إلى قوة طرد؟ كيف صار بيت واحد آخر موضع للطهارة؟

إن النهايات الكبرى لا تولد غالباً في لحظتها؛ تسبقها علامات صغيرة لا يلتقطها إلا المتوسمون. قد يرى الناس فعلاً منفرداً، ويرى المتوسم اتجاهًا؛ وقد يسمعون عبارة ساخرة عابرة، ويرى فيها انقلاباً في المعيار؛ وقد يرون صمت الصالحين حياداً مؤقتاً، ويرى فيه تراجعاً يفتح المجال لسلطان المنكر.

والتبصر ليس ادعاء معرفة الغيب، ولا إصدار الأحكام على السرائر، وإنما قراءة السنن من خلال العلامات الظاهرة. القرآن لا يربي المؤمن على سوء الظن بالناس، بل على حسن الفهم لمسارات الأعمال؛ فلا يغتر ببدايات صغيرة إذا كانت تتحرك في اتجاه خطير، ولا ينتظر اكتمال الانهيار قبل أن يبدأ الإصلاح.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

وقال سبحانه:

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

هنا يحدد القرآن مفتاحاً آخر للانتفاع: الخوف. وليس الخوف المقصود فرعاً يشل الإرادة، بل يقظة تمنع الإنسان من الاقتراب من أسباب الهلاك. الخائف حقاً لا يظل يحرق في الهاوية ثم يمشي نحوها؛ إنما يدفعه خوفه إلى التراجع والعمل.

وقد يسمع الإنسان خبر العذاب ويقول: وقع لغيري، فيضع بينه وبين القصة مسافةً نفسية تحرمه الانتفاع. أما الذين يخافون العذاب الأليم فإنهم لا يرون أنفسهم محصنين بذواتهم؛ يعلمون أن القلوب تتغير، وأن الفتن تتدرج، وأن الثبات يحتاج إلى سؤال الله ومجاهدة النفس، فيقرأون القصة بوصفها تحذيراً لهم قبل أن تكون حكماً على الغابرين.

الخوف الذي يولده القرآن لا يدفع المؤمن إلى اليأس، لأن القصة نفسها تحمل النجاة إلى جوار العقوبة. الذي يخاف يسلك طريق لوط: يؤمن، ويتطهر، وينكر، ويصبر، ويغادر حين يؤمر. ولو كان المقصود مجرد الترهيب الذي لا يخرج منه، لما عرض القرآن بيت الناجين وسط المدينة المهلكة.

إن التوازن بين الخوف والرجاء ظاهر في القصة كلها: عذاب لا ينبغي الاستهانة به، ونجاة لا ينبغي اليأس منها. الخوف يمنع الغرور، والرجاء يمنع القنوط، والطاعة تجمعهما في حركة واحدة نحو الله.

أربع بوابات إلى الآية

إذا جمعنا التعبيرات القرآنية وجدنا أن الانتفاع بآثار قوم لوط يرتبط بأربع صفات:

العقل: ﴿لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الإيمان: ﴿لَا يَأْتِيَنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

التوسم: ﴿لَا يَأْتِيَنَّ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾.

الخوف: ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

وهذه الصفات لا تتعارض، بل يكمل بعضها بعضاً. العقل يربط السبب بالنتيجة، والإيمان يصدق خبر الله، والتوسم يقرأ العلامات الدقيقة، والخوف يحول المعرفة إلى احتراز وعمل.

قد يعقل الإنسان بعض السنن، لكنه إذا فقد الإيمان قرأ التاريخ قراءةً ماديةً مبتورة. وقد يؤمن بالخبر إجمالاً، لكنه إذا لم يتوسم فاته فهم مراحلها وعلاماته. وقد يرى العلامات، لكنه إذا أمن العقوبة لم تدفعه المعرفة إلى التغيير. ومن جمع هذه الصفات رأى القصة رؤيةً كاملة: فهمها بعقله، وصدقها بقلبه، وتأملها ببصيرته، وخاف أن يسلك طريق أهلها.

الأثر الذي لا يتكلم إلا لمن يسأله

الآثار صامتة، لكنها تجيب من يحسن السؤال. إن سألتها عن أسماء ساكنيها ربما لم تجيب، وإن سألتها عن تفاصيل حياتهم اليومية بقيت حجاباتها ساكنة، لكن إن سألتها:

أين القوة التي اغتروا بها؟ وأين الشهوة التي باعوا من أجلها فطرتهم؟ وأين النادي الذي ضحكوا فيه؟ وأين الجموع التي هرعت إلى بيت لوط؟ فإن صمتها نفسه يصبح جواباً.

كل ما ملأ أعينهم صار غيباً، وما تنخروا منه بقي ذكراً. لم يحفظ التاريخ أسماء الذين اجتمعوا عند الباب، لكنه حفظ اسم الرجل الذي وقف في وجههم. ولم تحفظ الأجيال ضجيج ناديتهم، لكنها تردد كلمة لوط: ﴿الَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾.

وهذه من عدالة الله في الذكر؛ فقد يكون أهل الباطل أعلى صوتاً في زمنهم، لكن الزمن لا يضمن لهم البقاء. يبقى من الكلمات ما اتصل بالحق، ويسقط ما انتفخ بقوة اللحظة. ظن القوم أن لوطاً حادثة صغيرة في تاريخ مدينتهم، فإذا بمدينتهم كلها تصبح فصلاً في قصة لوط، ويغدو وجودهم معروفاً من خلال الرجل الذي حاولوا إخراجه.

حين تتحول القصة إلى مرآة

لا يكتمل الانتفاع بالقصة إذا بقي القارئ واقفاً خارجها، يشير إلى قوم لوط بوصفهم «أولئك» الذين مضوا. إن القرآن يضع القصة أمامه لتصبح مرآة يرى فيها بدايات الانحراف في النفس والمجتمع، وإن لم تتطابق الصور والأحوال.

قد لا يقطع الإنسان طريقاً مادياً، لكنه يقطع طريق الحق على غيره بالتضليل. وقد لا يقف عند باب ضيف، لكنه ينتهك حرمة ضيف لا نصير له. وقد لا يجلس في نادي القوم، لكنه يشارك في مجلس يزِن فيه المنكر ويُسخر فيه من الطهر. وقد لا يطالب بطرد نبي، لكنه يضيق بكل صوت يذكره بحدود الله.

العبرة لا تقوم على مساواة كل ذنب بجريمة القوم، ولا على التوسع المتعسف في إسقاط الآيات على الأفراد، بل على اكتشاف البذور الأخلاقية المشتركة: عبادة

الشهوة، وانقلاب المعيار، وقوة الجماعة، وإسكات الناصح، والعدوان على الضعيف، والسخرية من الطهارة، والأمن من العاقبة.

ومن قرأ القصة ليحكم الآخرين وحدهم فقد أفلت من أصعب أسئلتها: أين أقف أنا حين تتحول الكثرة إلى ضغط؟ هل أحفظ فطرتي إذا سخر منها المحيط؟ هل أنصر المظلوم إذا صار المعتدون جمهوراً؟ هل يبقى للضعيف والضعيف حق في نفسي؟ هل أسمح للرغبة بأن تكتب لنفسها قانوناً؟ هل أستقبل الإنذار بالتوبة أم بالمكابرة؟

الآية ليست دعوةً إلى القسوة

وقد يسيء بعض الناس قراءة آثار العذاب، فيخرج منها بقلب قاسٍ ولسان متشّفٍ، مع أن إبراهيم عليه السلام جادل في القوم رحمةً بهم، وأن لوطاً ظل يدعوهم حتى آخر لحظة. إن رؤية الآية ينبغي أن تزيد المؤمن خوفاً من الله ورحمةً بالخلق، لا استعلاءً عليهم.

وضوح الحكم الأخلاقي لا يقتضي إهانة الناس، والرحمة بهم لا تقتضي تسمية الباطل حقاً. وبين التميع والقسوة يقوم طريق النبوة: يقول المنكر إنه منكر، ويفتح لصاحبه باب التوبة، ويحجي المجتمع من العدوان، ولا ينزع عن المذنب إنسانيته.

لقد كان قوم لوط مجرمين لأنهم لم يقفوا عند معصية خاصة، بل صنعوا منها عدواناً جماعياً، وقطعوا السبيل، ومارسوا المنكر في مجالسهم، وحاصروا الضيف، وهددوا المصلح. ومن الظلم للنص أن يُحتزل كل هذا البناء في ذريعة لإطلاق الكراهية على الناس، كما أن من الظلم له أن تُمحي دلالته الأخلاقية الواضحة باسم الرحمة.

الرحمة التي لا تقول الحقيقة تترك الإنسان يمشي إلى الهاوية، والحقيقة التي تخلو من الرحمة قد تتحول في يد صاحبها إلى سوط لكبريائه. أما الرحمة النبوية فتخبر الإنسان بالخطر لأنها تريد نجاته.

بقاء الآية وزوال الغرور

كان القوم يريدون لحظتهم، فأعطاهم الله ما اختاروا ثم أبقى عاقبتهم. وهنا يظهر الفرق بين الإنسان الذي يعيش للشهوة والإنسان الذي يعيش للحق؛ الأول يستهلك المستقبل من أجل لحظة، والثاني يحتمل ألم اللحظة من أجل مستقبل لا ينقطع.

لقد نظر القوم إلى الضيوف فرأوا مطلوباً عاجلاً، ولم ينظروا إلى الصباح القريب. ونظر لوط إلى أمر الله فرأى ما وراء الليل، فخرج ومضى. انتهت لذة القوم قبل أن تبدأ، وبقي عذابها آيةً، وانتهى تعب لوط عند الصباح، وبقي موقفه شرفاً خالداً.

كل شهوة تعد صاحبها بأن اللحظة هي العالم كله، وكل وحي يفتح عينه على ما بعد اللحظة. لذلك كانت المعركة الحقيقية في القصة معركةً على أفق النظر: القوم يرون ما يريدون الآن، ولوط يرى ربه وعاقبته وما ينبغي أن يكون.

التاريخ لا يمنح العصمة لأحد

إن بقاء آثار القوم لا يعني أن الأمم اللاحقة صارت محصنةً من طريقهم؛ بل

العكس هو المقصود. لو كان الماضي يمنح الحاضر العصمة لما قال الله: ﴿أَفَلَا

تَعْقِلُونَ﴾. التاريخ لا ينقذ من لا يتعلم منه، وقد يعرف الجيل قصص الهالكين ثم يعيد مقدماتها بأسماء جديدة.

والحضارة لا تُقاس بما تنتجه من أبنية وتقنيات وحدها، بل بما تحفظه من معنى الإنسان. كانت لقوم لوط قرى وطرق ومجالس وتنظيم اجتماعي، لكن ذلك كله لم يمنع وصفهم بالإجرام والفسق والجهل والإسراف. فقد يتقدم الإنسان في وسائل الحياة ويتراجع في غاياتها، ويبني المدينة خارجاً بينما يهدمها في داخله.

إن أعظم عمران هو عمران الضمير؛ فإذا انهار، صارت المنجزات أدوات في يد الشهوة والقوة. وما نفع الطريق إذا لم يأمن عليه المسافر؟ وما نفع المجلس إذا صار موضعاً للنكر؟ وما نفع البيت إذا سقطت حرمة؟ وما نفع الحرية إذا تحولت إلى سلطان للقوي على الضعيف؟

ما الذي بقي من قوم لوط؟

بقيت منهم آية، ولم يبق مشروعهم.

بقي التحذير من طريقهم، ولم يبق صخب ناديتهم.

بقي اسم لوط نقيّاً، ولم تبق أسماء الذين سخروا منه.

بقيت الطهارة التي أرادوا طردها قيمةً يتعبد بها المؤمنون، وبقيت الفاحشة التي أرادوا حمايتها علامةً على سقوطهم.

وبقي السؤال الذي أطلقه النبي عند الباب:

﴿لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾.

كأن هذا السؤال لم يكن موجّهاً إلى أولئك وحدهم، بل إلى كل مجتمع يرى المنكر يتقدم، وإلى كل مجلس يبدأ فيه القبح صغيراً، وإلى كل فرد يشعر بضغط

الجماعة. ليس المطلوب دائماً جيشاً يغير المشهد دفعةً واحدة؛ قد يبدأ الإنقاذ برجل رشيد يرفض أن يمنح الباطل صمته.

هكذا تصبح القصة آيةً حية: لا تطالبنا فقط أن نستنكر النهاية، بل أن نكتشف المقدمات، ولا أن نتأمل انقلاب القرى وحده، بل أن نمنع انقلاب الموازين داخل النفس. فالأرض لا تتقلب أولاً؛ الذي يتقلب أولاً هو الإنسان.

ومن هنا نصل إلى أعمق طبقات القصة: كيف يصنع الاعتياد ضميراً جديداً؟ وكيف تتحول الرغبة من دافع داخل النفس إلى سلطة تعيد تعريف الخير والشر؟ وكيف يصبح المجتمع شريكاً في الخطيئة حتى لو لم يباشر كل أفرادها الفعل نفسه؟

## الفصل الثامن

### تَشْرِيحُ الْإِنْقِلَابِ الْأَخْلَاقِيِّ

كَيْفَ تَنْتَقِلُ الْخَطِيئَةُ مِنَ النَّفْسِ إِلَى الْمَجْلِسِ، وَمِنَ الْمَجْلِسِ إِلَى هُوِيَّةِ  
الْمُجْتَمَعِ؟

لا تسقط المجتمعات الأخلاقية دفعةً واحدة، ولا تستيقظ أمة في صباح مفاجئ فتجد أن فطرتها قد انقلبت من غير مقدمات. إن السقوط يبدأ غالباً بحركة صغيرة في الظل، ثم تسع دأرتها ببطء، حتى يأتي يوم ينظر فيه الناس إلى ما كانوا يستقبحونه فلا يجدون في نفوسهم بقيةً من النور القديم. وليس أخطر ما تصنعه الخطيئة أنها تمنح صاحبها لذةً عابرة، بل أنها تعيد تشكيل الحاسة التي كان يميز بها بين الطيب والخبيث.

وقصة قوم لوط ليست مجرد وصف للنقطة الأخيرة التي وصلوا إليها، بل يمكن أن تُقرأ بوصفها كشفاً لمراحل التحول الذي يسبق الانهيار؛ فقد بدأت الرغبة حين انفصلت عن الهداية، ثم تحولت إلى فعل، والفعل إلى عادة، والعادة إلى مجاهرة، والمجاهرة إلى تواطؤ، والتواطؤ إلى هوية اجتماعية، ثم صارت تلك الهوية قوةً تطرد من يخالفها، حتى انتهت إلى تحدي الله واستعجال عذابه.

إن المسافة بين أول الخاطر وقلب القرية طويلة، لكنها تتكون من خطوات صغيرة؛ وكل خطوة تُقبل بلا مقاومة تجعل الخطوة التالية أسير. المرحلة الأولى: حين تطالب الرغبة بأن تكون مرجعاً لنفسها

أودع الله في الإنسان غرائز وميولاً وشهوات؛ وبها تستمر الحياة، وتتحرك النفس، وتتكون الأسرة، ويطلب الرزق، ويمجد الإنسان كثيراً من أسباب السكن والفرح. فليس وجود الرغبة عيباً في الخلقة، ولا الطهارة إلغاءً للجسد، وإنما الطهارة أن ينتظم الجسد داخل الحكمة التي خلق لها.

لكن الانحراف يبدأ حين لا تعود الرغبة تسأل عن موقعها من الحق، بل تطالب بأن تكون هي التي تحدد الحق. وبدل أن يقول الإنسان: أشتهي، فهل يجوز لي أن أفعل؟ يقول: ما دمت أشتهي فلا بد أن يكون الفعل حقاً لي. وهنا يقع انقلاب خفي في ترتيب المرجعيات؛ فالشهوة التي كانت جزءاً من الإنسان تصبح حاكماً عليه، والوحي الذي كان يقودها يطلب منه أن يتراجع أو يعيد تفسير نفسه ليوافقها.

وهذا هو المعنى الأعمق لقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾؛ فالإنسان لا يسجد لهواه بجهته، لكنه قد يمنحه وظيفة الإله حين يجعل أمره أعلى أمر، ورضاه غاية لا تراجع، وميله مصدراً لتحديد الخير والشر.

وقوم لوط لم يدانوا لأن في النفس البشرية شهوة، بل لأنهم جعلوا الشهوة منفصلةً عن ميزان الخلق، ثم اتجهوا بها إلى ما حرمه الله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾. واللفظ يضع الشهوة في موضع التعليل؛ فهي التي تقود الحركة بعد أن تحررت من حدها، ولذلك جاء الحكم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

والإسراف لا يعني قوة الرغبة وحدها، بل رفض الحد الذي يمنحها معناها المشروع. فالماء نعمة ما دام يجري في مجراه، فإذا كسر ضفافه أغرق الأرض؛ والنار

منفعة ما دامت محكومةً بموضعها، فإذا انفلتت أكلت البيت. وكذلك الشهوة: ليست المشكلة في طاعتها، بل في الجهة التي تُصرف فيها والحد الذي يضبطها.

### المرحلة الثانية: من الخاطر إلى الفعل

ليست الخواطر سواءً مع الأفعال؛ فقد يمر بالنفس ما يكرهه صاحبه ويجاهده ولا يستجيب له، فلا يكون وجود الامتحان في ذاته هو الجريمة. إن المجال الأخلاقي يبدأ عند موقف الإرادة: هل يقاوم الإنسان ما لا يرضي الله، أم يحوله إلى قصد ثم فعل؟

ولذلك اختار القرآن لفظ ﴿تَأْتُونَ﴾؛ فالإتيان حركة مقصودة نحو الفاحشة. لم يبق الأمر خاطراً في النفس، بل أصبح وجهةً تمشي إليها الأقدام، وتتهيأ لها الأسباب، وتحول فيها الرغبة إلى قرار.

وفي هذه المرحلة يكون باب الرجوع واسعاً؛ فصاحب الذنب يستطيع أن يعترف، ويندم، ويقطع الطريق، ويستغفر، ويستبدل بالفعل طاعة. بل قد يخرج من توبته أكثر معرفةً بضعفه وأشد افتقاراً إلى ربه. إن الإسلام لا يجعل المذنب هويته هي ذنبه، ولا يحكم عليه بأن باب الطهر قد أغلق؛ فالإنسان أوسع من خطئه، والتوبة قادرة بإذن الله على أن تعيد بناء ما هدمته المعصية.

لكن قوم لوط لم يقفوا عند الفعل ثم يرجعوا، بل كرروه حتى صنع التكرار في نفوسهم طريقاً ممهداً.

### المرحلة الثالثة: من الفعل إلى العادة

الفعل الأول يواجه غالباً مقاومةً من الضمير؛ يشعر صاحبه بالقلق، ويبحث عن العذر، ويخشى أن يكشف أمره. لكن تكرار الفعل يضعف حساسية القلب، لا لأن القبيح تغير، بل لأن جهاز الإنذار الداخلي أنك بكثرة ما جرى تجاهله.

كل مرة يستجيب فيها الإنسان للمعصية تجعل الاستجابة التالية أسهل، وكل مرة يقاوم فيها تجعل المقاومة التالية أقوى. فالأعمال لا تقع خارج النفس ثم تنتهي، بل تعود إليها وتعيد تشكيلها؛ الطاعة تبني استعداداً للطاعة، والمعصية تبني قابلية للمعصية. ولهذا قال تعالى عن قوم لوط:

﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾.

لم يقل: فعلوا سيئة، بل ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ صيغة تدل على الاستمرار والتجدد. حين جاء الضيوف لم يبدأ القوم فسادهم، وإنما تحرك داخلهم تاريخ طويل من التدريب على الاستجابة للشهوة. لقد صنعوا بأعمالهم السابقة ذلك الاندفاع الذي ظهر في قول الله: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾.

العادة تخدع صاحبها؛ فكلما تكرر الفعل خف شعوره بأنه يختار، ويقول: هذه طبيعي ولا أستطيع غيرها، مع أنه أسهم باختياراته المتتابة في تقوية هذا المسار. وما صنعه التكرار يمكن أن تبدأ التوبة في تفكيكه، لكن ذلك يحتاج إلى صدق وصبر وقطع للأسباب، لا إلى الاستسلام لوهم العجز.

المرحلة الرابعة: البحث عن اسم يخفف قبح الفعل

حين يبقى اسم الخطيئة واضحاً، يبقى في اللغة شاهد يلاحق صاحبها؛ ولذلك تحاول النفس المراوغة أن تغير الأسماء قبل أن تغير السلوك. لا تقول: عصيت، بل تقول: عبرت عن نفسي. ولا تقول: اعتديت، بل تقول: أخذت حقي. ولا تقول: تكبرت، بل تقول: حفظت كرامتي.

إن تغيير الاسم لا يغير حقيقة الفعل عند الله، لكنه يخدر ضمير مؤقتاً. ولهذا سمي القرآن فعل قوم لوط منذ البداية: ﴿الْفَاحِشَةُ﴾؛ فوضعه في ميزانه قبل أن يسمح لمرافعات الهوى أن تحيط به.

واللغة ليست وعاءً محايداً دائماً؛ من يملك تسمية الأشياء قد يؤثر في طريقة استقبال الناس لها. فإذا زعت من المنكر اسمه، ضعفت مقاومته في النفوس، وإذا جعلت الطهر مادةً للسخرية، تردد الناس في الانتساب إليه.

وقد فعل قوم لوط الأمرين معاً: مارسوا الفاحشة كأنها مألوفة، ووصفوا آل لوط بالطهارة على سبيل التهكم: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾. لم يكتفوا بتخفيف قبح عملهم، بل حاولوا أن ينقلوا القبح إلى الطرف الآخر؛ فصار الطاهر متهماً بأنه يتكلف الطهر ويتعالى على الجماعة.

وهذه مرحلة شديدة الخطورة: حين لا يعود الباطل محتاجاً إلى الدفاع عن نفسه، بل يضع الحق في قفص الاتهام.

#### المرحلة الخامسة: من السر إلى المجاهرة

للسر—مع بقاء الذنب—دلالة على أن في النفس بقية حياة، وأن صاحبها لم يطالب المجتمع بأن يعترف بخطئه فضيلةً. أما المجاهرة فتضيف إلى المعصية طبقةً أخرى؛ لأنها تكسر هيبتها في نفوس الآخرين، وتدعو إلى تقليدها، وتعلن التمرد على الميزان.

وقوم لوط لم يكونوا يستترون؛ كانوا يأتون المنكر في ناديتهم، ويهرعون جماعةً إلى بيت لوط. لقد انتقلت الخطيئة من حجات الأفراد إلى الفضاء العام، وصارت الجماعة ترى بعضها وهي تفعل، فلا يستحي أحد من أحد.

والجاهرة لا تبدأ دائماً بإعلان صريح؛ قد تبدأ بنكتة تخفف قبح الفعل، أو قصة تُروى بلا إنكار، أو مشهد يتكرر حتى يألفه الناس، أو مجلس يسكت فيه الرشاء. ومع كل انتقال تراجع المسافة بين المجتمع والمنكر، حتى يصبح وجوده طبيعياً في الحس العام.

لكن الفرق كبير بين الرحمة بالمدنّب والاحتفاء بالذنب. الرحمة تستر الإنسان وتعينه على التوبة ولا تفضحه، أما الاحتفاء فيزين له ما يهلكه ويغلق عليه طريق المراجعة. ومن أراد الخير للإنسان لم يحوله إلى خطيئته، ولم يختصره فيها، لكنه كذلك لا يكذب عليه فيسمي ما يضره نجاة.

المرحلة السادسة: انتقال الفاحشة إلى النادي

قال تعالى:

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾.

النادي هو المكان الذي تصنع فيه الجماعة صورتها المشتركة؛ فإذا دخل المنكر إليه، لم يعد مجرد ممارسة شخصية، بل تحول إلى مادة اجتماعية تتناقشها الأعين والألسنة. في النادي يُختبر ميزان المجتمع: ما الذي يضحك له؟ ما الذي يغضب بسببه؟ من الذي يكرمه؟ وعلى من يسخر؟

وقد لا يكون كل من في المجلس مباشراً للفعل، لكن سكوت الراضي وتشجيع المشجع وضحك المتفرج تمنح الفاعل شعوراً بأن الجماعة معه. هكذا تتوزع صناعة الفساد على أدوار؛ يبدأها واحد، ويزينها آخر، ويبررها ثالث، ويحميها صاحب قوة، ويصمت عنها من يملك كلمةً لو قالها لتغير شيء.

ولا يعني ذلك أن كل صامت يساوي الفاعل في الدرجة أو الحكم؛ فالأحوال والقدرات والنيات تختلف، والله أعلم بالقلوب والاستطاعات. لكن القاعدة باقية: الصمت الاجتماعي الطويل يهيئ للنكر بيئةً يتدد فيها. ومن لم يستطع التغيير بيده أو لسانه بقي عليه ألا يمنح المنكر رضاه القلبي، وألا يتحول اعتياده للمشهد إلى قبول.

النادي الفاسد لا يصنع الخطيئة فقط، بل يصنع جيلاً لا يعرف أنها خطيئة؛ فالناشئ الذي يرى الكبار يضحكون للنكر يتعلم قبل أن يفهم أن الضحك هو الموقف الصحيح منه. وهكذا يرث الأبناء حساً أخلاقياً مشوهاً، لا لأن أحداً ألقى عليهم درساً نظرياً، بل لأنهم تشرّبوا ميزان الجماعة في تفاصيل الحياة.

#### المرحلة السابعة: صناعة وهم الإجماع

حين يجاهر عدد من الناس بالمنكر، ويسكت عدد آخر، قد ينشأ وهم أن الجميع متفقون. وهذا الوهم يزيد قوة الباطل؛ فالمتردد يخاف أن يكون وحده، وصاحب الفطرة يخشى السخرية، ومن في قلبه بقية إنكار يظن أن صوته لن يغير شيئاً.

لكن المجتمع قد يكون أقل اتفاقاً مما يبدو؛ ربما ينتظر كثيرون الرجل الرشيد

الذي يتكلم أولاً. لذلك كان سؤال لوط بالغاً في معناه: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾. كان يبحث عن إنسان يكسر وهم الإجماع ويثبت أن الجموع ليست قدراً.

إن الشجاعة الأخلاقية ليست دائماً أن يقول المرء كلاماً لم يعرفه أحد، بل أن يقول ما يعرفه كثيرون ويخافون إعلانه. وقد يتغير ميزان مجلس كامل بصوت واحد صادق؛ لا لأنه أقوى من الجميع مادياً، بل لأنه يحرر الضمائر المترددة من سجن الصمت.

غير أن قوم لوط بلغوا مرحلة لم يظهر فيها ذلك الصوت. كان التواطؤ قد اكتمل، وصارت الكثرة تتحرك بكسد واحد. ومن هنا استحقوا أن يوصفوا بوصف جماعي: ﴿قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، و﴿قَوْمٌ عَادُونَ﴾، و﴿قَوْمٌ يَّجْهَلُونَ﴾.

المرحلة الثامنة: تحويل الطهارة إلى تهمة

حين يصبح المنكر قوياً، لا يطمئن إلى مجرد وجوده؛ لأن وجود الطاهر إلى جواره يظل شهادة صامتة بأن هناك طريقاً آخر. ولذلك ينتقل من الدفاع عن نفسه إلى مهاجمة من يخالفه:

﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾.

لم يطالب آل لوط بإخراج القوم، وإنما دعاهم لوط إلى الطهارة؛ لكن القوم هم الذين اختاروا الإقصاء. وهذه مفارقة تكشف أن خطابهم عن حريتهم لم يتسع لحرية الطاهر في أن يبقى طاهراً وينصحهم. أرادوا فضاءً لا يسمع فيه صوت مخالف، ولا يعيش فيه نموذج يذكّرهم بما رفضوه.

والباطل يخشى النماذج أكثر من خوفه من المواعظ المجردة؛ فقد يستطيع أن يسخر من كلمة الطهارة، لكنه يجد أمامه بيتاً يعيشها فعلاً. وجود آل لوط كان برهاناً حياً

على أن مقاومة الفاحشة ممكنة، وأن قول القوم: لا نستطيع غير هذا، كذب تكشفه حياة الأسرة المؤمنة.

لذلك كان الإخراج محاولةً لمحو المقارنة. فإذا غاب الطاهرون، أمكن للمجتمع أن يتوهم أنه طبيعي، وأن ما يفعله لا بديل له. وهكذا تتحول الأغلبية من كثرة عددية إلى سلطة تريد إعادة تشكيل الواقع كله حتى لا يبقى فيه شاهد عليها.

المرحلة التاسعة: معاقبة من يحمي الضعيف

قال القوم للوط:

﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

لقد تجاوزوا منع الإنكار إلى منعه من ضيافة الغرباء. لم يعد المطلوب أن يسكت فحسب، بل أن يتخلى عن مسؤوليته الإنسانية ويغلق بيته أمام من يحتاج إلى الأمان. فالمجتمع المعتدي لا يطارده الضحية وحدها، وإنما يطارده الملجأ الذي قد يحميها.

وهذه علامة فارقة في تحول الفساد إلى نظام: حين يصبح إنقاذ المظلوم مخالفة، وإيواء المستجير تحدياً للجماعة، والدفاع عن الحرمه سبباً لمعاقبة صاحبه. عندئذ لا يعود الظلم فعل أفراد، بل يصبح بنيةً تضمن للمعتدي سهولة الوصول، وتحرم الضعيف من أبواب النجاة.

وقف لوط عند بابه، ولم يكن يدافع عن فكرة مجردة، بل عن أشخاص دخلوا في ذمته. فالقيم التي لا تتحول عند الامتحان إلى حماية للإنسان تبقى كلمات جميلة ناقصة. كان من السهل أن يتحدث عن حرمة الضيف، لكن صدق المبدأ ظهر حين جاءت الجموع، وحين صار ثمن الوفاء به خطراً يحيط به.

## المرحلة العاشرة: العدوان المنظم

تخبرنا القصة أن فسادهم اتصل بقطع السبيل ومراودة لوط عن ضيفه. وهذا يعني أن الشهوة لم تعد تطلب القبول فحسب، بل امتلكت قوة الإكراه. ومن هنا يظهر أن مشكلتهم لم تكن ميلاً خاصاً فقط، وإنما عدواناً عاماً.

فالإنسان حين يجعل رغبته مطلقةً قد يرى الآخرين وسائل لتحقيقها، لا ذواتاً لها حرمة وإرادة. وكل رغبة لا يعترف صاحبها بحد يقف عند حرمة غيره تحمل بذرة الاعتداء، سواء كانت رغبةً في جسد أو مال أو سلطان.

الأخلاق تبدأ من الاعتراف بأن للآخر حدوداً لا يبيح لي اشتباهاً تجاوزها، وأن قدرتي على فعل الشيء لا تجعله حقاً لي. أما القوم فقد جمعوا بين الشهوة والقوة، فصار الغريب في طريقهم مهدداً، والضيف في البيت محاصراً، والنبي نفسه عاجزاً في ظاهر الأمر عن ردهم.

ومن هنا جاء وصفهم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾. العدوان هو تجاوز الحد إلى حقوق الآخرين؛ ولذا فإن اختزال القصة في شأن ذاتي خاص يترك جانباً جوهرياً من بنائها القرآني.

## المرحلة الحادية عشرة: السخرية من العاقبة

بعد أن تضعف هيبة الحق في النفس، تبدأ السخرية من الجزاء:

﴿إِنَّمَا نَعْدَابُ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

لم يعودوا يكتفون برفض التحذير، بل صاروا يستعجلون ما حذّروا منه. والإنسان لا يبلغ هذه الجراءة في يوم واحد؛ تسبقها مرات يتأخر فيها العقاب فيظن أن التأخر إغواء، وتمر عليه النذر فيحسبها كلاماً لا أثر له، حتى ينشأ في قلبه أمن كاذب.

إن من أخطر آثار المعصية المتكررة أنها تعطل الإحساس بالعاقبة؛ يعيش الإنسان داخل الحاضر الضيق، ويعامل الموت والحساب كأنهما فكرتان تخصان غيره. وقد يعلم بلسانه أنه سيُموت، لكنه يتصرف كأن عمره خارج قانون الفناء.

وقوم لوط رأوا لوطاً يندرهم طويلاً، ولم ينزل العذاب في اللحظة التي حذرهم فيها، فخلوا حلم الله إلى حجة على تكذيبه. لم يفهموا أن المهلة مساحة للتوبة، وأن كل يوم جديد يضاعف مسؤوليتهم إذا استمروا.

#### المرحلة الثانية عشرة: فقدان القدرة على سماع الإنذار

في البدايات يسمع الإنسان النصيحة فيتألم منها؛ وقد يكون ألمه علامةً على أن القلب ما يزال حيّاً. ثم يسمعها فيدافع عن نفسه، ثم يضيق بالناصح، ثم يسخر منه، ثم يطالبه بالصمت، ثم يسعى إلى إخراجه.

هذه هي المسافة التي قطعها قوم لوط مع نبيهم. لم تكن مشكلتهم أنهم لم يسمعوا؛ لقد سمعوا بوضوح، لكنهم فقدوا الاستعداد للاستجابة. ومعنى ذلك أن نقصهم لم يكن في الدليل، بل في الإرادة التي تستقبل الدليل.

وقد يطلب الإنسان مزيداً من البراهين، بينما مشكلته الحقيقية أنه لا يريد النتيجة التي تقوده إليها البراهين. ولوط واجههم بحجة الفطرة، وذكّرهم بالنساء اللاتي خلقهن الله لهم، وبالتقوى، وبحرمة الضيف، وبالرشد، لكنهم ردوا بأنهم يعلمون ما يريدون.

لقد اختصروا القضية كلها في الإرادة: ﴿وَأَنْتَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

حين تصبح الإرادة مغلقة على مرادها، لا تعود الحقيقة ضيقاً مرحباً به، بل عائناً ينبغي التخلص منه. وهذا هو المرض الذي يجعل الإنسان يقرأ الوحي لا ليسأل: ماذا يريد الله مني؟ بل ليسأل: كيف أجعل النص يوافق ما أريد؟

من الانقلاب الداخلي إلى الانقلاب الخارجي

هكذا تكتمل مراحل التحول: رغبة تنفصل عن الهداية، وفعل يُكرر، وعادة تقتل الحياء، ولغة تغير الأسماء، ومجاهرة تطبع الحس، ونادٍ يحمي المنكر، وجماعة تصنع وهم الإجماع، وسلطة تطرد الأطهار، وقوة تعتدي على الضيف، ثم جراءة تتحدى العذاب.

وعندما قال الله: ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾، كان الانقلاب الخارجي خاتمةً لانقلاب داخلي اكتمل. لم تبدأ الكارثة حين تحركت الأرض، بل حين تحركت الشهوة من موضعها لتعتلي عرش الإنسان. ولم تبدأ حين نزلت المجارة، بل حين رُميت الطهارة بالسخرية. ولم يبدأ قطع القرية يوم الصبح، بل يوم قطع القوم السبيل إلى الفطرة والتوبة والرشد.

إن الخراب المادي آخر الفصول، أما الفصل الأول فيُكتب داخل الضمير؛ ولهذا يركز الإصلاح النبوي على الإنسان قبل المبنى، وعلى الميزان قبل النظام، وعلى القلب قبل الشارع. فإذا استقام القلب أمكن إصلاح ما تهدم خارجه، أما إذا فسد الميزان الداخلي فقد يستخدم الإنسان أجمل المباني وأدق الأنظمة لخدمة الظلم.

هل العودة ممكنة قبل النهاية؟

نعم؛ فإدام العذاب لم ينزل، وما دام القلب ينبض، فباب التوبة مفتوح. لم تكن المراحل السابقة قدراً لا يمكن قطعه؛ كان في وسع القوم عند كل مرحلة أن يرجعوا. كان يمكن لصاحب الخاطر أن يجاهد، ولصاحب الفعل أن يتوب، وللمجاهر

أن يستتر ويستغفر، ولجلالس في النادي أن ينكر، وللصامت أن يتكلم، وللمندفع نحو البيت أن يتوقف، وللجموع أن تستجيب لسؤال لوط فتقدم رجلاً رشيداً.

لكنهم رفضوا أبواب الرجوع أباً بعد باب، حتى لم يبق إلا باب المدينة يخرج منه لوط ليلاً.

والتوبة ليست إنكاراً لوجود الصراع في النفس، بل اعتراف بأن الله أكبر منه، وأن الإنسان لا يُختصر في نزوة أو عادة أو ماضٍ. وقد تكون التوبة طويلة المهادنة، تحتاج إلى صحبة صالحة وقطع للأسباب وصبر على ألم التغيير، لكنها تظل ممكنة ما دام الإنسان صادقاً في طلبها.

إن القرآن لا يقص قصة القوم ليقول للناس إن كل من وقع في معصية قد صار مثلهم في الحكم والمصير، فهم بلغوا من الإصرار والمجاهرة والعدوان والتكذيب ما وصفته الآيات. والمذنب الذي يندم ويقاوم ويرجو رحمة الله ليس كقوم قالوا لنبيهم: اثنتا بعذاب الله، ولا يجوز إغلاق باب الرحمة في وجهه.

المعيار ليس أن الإنسان لم يتعثر قط، بل ألا يحول عثرته إلى طريق يفخر به، وألا يجعل ضعفه شريعةً يطالب الآخرين بالخضوع لها، وألا يعادي اليد التي تريد انتشاله.

مسؤولية المجتمع قبل بلوغ الخافة

إذا كانت الخطيئة تنتقل عبر هذه المراحل، فإن مقاومة الفساد لا تبدأ عند اكتماله، بل في البدايات: بتربية الضمير، وحفظ معنى الحياء، وبيان الحق برفق ووضوح، وحماية الضعفاء، ومنع العدوان، وصناعة مجالس لا يُحتفى فيها بالمتكر، وفتح أبواب التوبة لمن يريد الرجوع.

والمجتمع الصالح ليس مجتمعاً يخلو أفراده من الذنوب؛ فهذا غير ممكن في البشر، وإنما هو مجتمع لا يفقد القدرة على تسمية الخطأ، ولا يغلق باب الإصلاح، ولا يحول الستر إلى تواطؤ، ولا يحول الإنكار إلى تشهير، ولا يجعل الطهارة استعلاءً على المذنبين.

فالستر يحفظ كرامة الإنسان ليعينه على الرجوع، لكنه لا يعني إنكار حقيقة الذنب. والنصيحة تفتح له الطريق، لكنها لا تكون إذلاً. والعقوبة الشرعية لها شروطها وسلطانها وليست فوضى يباشرها الأفراد. والدعوة مسؤولية رحيمة، لا تصرح للناس بالتجسس والاعتداء.

هذه الفروق ضرورية؛ لأن بعض الناس قد يواجه الانحراف بانحراف مضاد: يقاوم الفاحشة بالقسوة، ويرد العدوان بعدوان، وينسى أن لو طاً خاطب القوم: ﴿يَا قَوْمِ﴾، ودلهم على الطهر، ودعاهم إلى التقوى والرشد. لقد كان واضحاً في الحكم، لكنه لم يتحول إلى جلاد؛ وظل نبياً يريد نجاتهم حتى صار الحكم إلى الله.

أخطر انتصار يحققه الباطل

ليس أخطر انتصار للباطل أن يجعل الناس يمارسونه، بل أن يجعلهم يفقدون القدرة على تصور الحياة من دونه. عندئذ يبدو الحق غريباً، ويبدو الطهر تكلفاً، وينظر إلى الرشد كأنه خروج عن الواقع.

وقد بلغ قوم لوط هذه المرحلة؛ لذلك لم يناقشوا البديل الذي عرضه عليهم، بل

قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾. لم يعودوا يرون الطريق الآخر داخل مجال اختيارهم، مع أنه الطريق الذي خلقه الله لهم.

ومهمة النبوة أن تعيد فتح الخيال الأخلاقي الذي أغلقته العادة؛ أن تقول للإنسان: لست محكوماً بما ألفت، ويمكنك أن تعود، وهناك طريق أظهر، ولست مضطراً إلى أن تجعل شهوةً عابرة تعريفاً كاملاً لوجودك.

لقد وقف لوط وحده يحمل هذا الإمكان أمام مدينة أغلقت خيالها، فقال لهم:

﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَظْهَرُ لَكُمْ﴾. كان يفتح باباً، لكنهم أرادوا كسر باب آخر.

ومن هنا يصبح من الضروري أن نتأمل منهج لوط نفسه: كيف خاطب قوماً استحكم فيهم الانحراف؟ كيف جمع بين وضوح الحكم والرحمة بالمدعوين؟ كيف قاوم وهو قليل الناصر؟ وكيف ظل نبياً أخلاقياً فلم تسمح له بشاعة القوم أن يتشبه بهم في القسوة والعدوان؟

## الفصل التاسع

مَنْحُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْمُؤَاجَهَةِ  
وُضُوحٌ لَا يَدَاهُنْ، وَرَحْمَةٌ لَا تُحَرِّفُ الْحَقِيقَةَ، وَثَبَاتٌ لَا يَشْتَرِطُ الْكَثْرَةَ

منهج المواجهة يبدأ بإيقاظ الفطرة

لم يكن لوط عليه السلام خطيباً يقف بعيداً عن واقع قومه، بل عاش بينهم ورأى المنكر يتسع حتى صار قوةً تحاصر بيته. ومن هنا لا تقدم قصته مضمون الدعوة وحده، بل تقدم منهج المصلح حين يعيش داخل بيئة تقاوم الإصلاح؛ كيف يقول الحق من غير أن يفقد رحمته، وكيف يثبت من غير أن يشترط كثرة الناصرين.

بدأ لوط بالسؤال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ؟﴾، لأن السؤال يعيد الإنسان إلى نفسه ويضع الفعل أمام فطرته بعد أن غطته العادة. لكنه لم يجعل لطف السؤال غموضاً في الحكم؛ فقد سمى الفعل فاحشة، فجمع بين الأسلوب الذي يوقظ والحقيقة التي لا تدهن.

سمى العمل ولم يختصر الإنسان فيه

قال تعالى على لسانه: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾. لم يقل: إني لكم من القالين، بل وجه الكراهية إلى العمل. وفي هذا أصل من أصول الدعوة؛ فالإنسان مسؤول عن خطئه، لكن خطأه لا يسلبه إنسانيته ولا يغلق أمامه باب التوبة، ووضوح الحكم لا يبيح ظلم صاحبه أو امتنانه.

ردهم إلى الخلق والربوبية

لم ين لوط إنكاره على ذوق اجتماعي متغير، وإنما رد قومه إلى أصل الخلق: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾. فالجسد ليس مادة سائبة، والرغبة ليست مرجعاً مطلقاً، والذي خلق الإنسان أعلم بالطريق الذي يحفظ فطرته وكرامته واستمرار حياته.

قدم البديل الطاهر

عند باب بيته قال: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾. لم يكن خطابه نبياً مجرداً، بل دلهم على الطريق المشروع؛ فالدعوة الحكيمة لا تغلق باب الحرام ثم تترك النفس في فراغ، وإنما تفتح أبواب الحلال، وتبين أن الطهارة ليست إلغاءً للرغبة بل تنظيمًا لها في عهد يحفظ الحقوق.

خاطب التقوى والمروءة

قال لهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾. ردهم أولاً إلى رقابة الله التي لا تتغير بتغير الجمهور، ثم استنهض فيهم حرمة الضيف والمروءة. كان يطرق كل باب يمكن أن تدخل منه بقية الخير إلى القلب، من غير أن يحول المروءة إلى بديل عن التقوى أو يبذل أصل الحكم.

استدعى الرجل الرشيد من داخل الجماعة

حين قال: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾، كان يخاطب الفرد المختبئ داخل الحشد، ويذكره بأن الجماعة لا تعفيه من مسؤوليته. كان يكفي أن يقف واحد ليكسر وهم

الإجماع، لكن المجتمع الذي يطيل التواطؤ على المنكر يسكت أصوات الرشد حتى يحتاج إليها فلا يجدوها.

حمى الضعيف ولم يتجسس على السرائر

واجه لوط أفعالاً ظاهرةً تحولت إلى عدوان عام: قطعاً للسبيل، ومنكراً في النادي، وحصاراً للضعيف. لم يجعل دعوته تفتيشاً في خفايا النفوس، بل وقف عند الظاهر وحمى من دخلوا في أمانه. فالستر على المبتلى يعينه على التوبة، أما السكوت عن العدوان على الضعيف فليس سترًا بل تخلياً عن الحق.

طلب القوة لتخدم الحق

قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾. لم يجد العجز، بل تبنى قوةً تحمي الحرمات، لكنه لم يجعل القوة مصدر الحق؛ بقي الحق حقاً وهو قليل الناصر، وبقي الباطل باطلاً وهو مدعوم بالجموع. القوة نعمة حين تكون جداراً للضعيف، ونقمة حين تتحول إلى أداة اقتراس.

عرف متى يصبر ومتى يخرج

ظل لوط بين قومه ما دام مأموراً بالبلاغ، وحين قيل له: ﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ خرج بلا تردد. فالثبات لا يعني البقاء في المكان نفسه دائماً؛ قد يكون مرةً أن تقيم وتقاوم، ومرةً أن تهاجر وتحفظ الإيمان. الفضيلة في وضع الصبر والحركة في الموضع الذي يأمر الله به.

أوكل الحكم الأخير إلى الله

لم ينصب لوط نفسه منفذاً لعذاب القوم، ولم يجعل غضبه تفويضاً بالعنف، بل بلغ ودعا وحمى وانتظر حكم الله. وهذا يمنع استعمال القصة ذريعةً للاعتداء؛ فبيان حكم الفعل شيء، والظلم والتجسس والفوضى شيء آخر، ومصائر الأعيان وسرائرهم إلى الله وحده.

لم يجعل قلة المستجيبين دليلاً على فشل الرسالة

لم يوجد في القرى غير بيت من المسلمين، ومع ذلك لم يكن لوط فاشلاً؛ لأن معيار الرسالة صدق البلاغ والثبات، لا كثرة الأتباع وحدها. قد لا يستطيع المصلح أن يزيل الباطل في حياته، لكن انتصاره الأول ألا يسمح للباطل أن يزيل الحق من داخله.

انتصار لوط الحقيقي

انتصر لوط لأنه لم يتحول إلى صورة من خصومه؛ لم تسمح له كثرتهم أن يغير حكمه، ولا عدوانهم أن يفسد أخلاقه، ولا غربته أن تغير ولاءه. خرج من المدينة نظيف القلب واليد والموقف، وبقي ذكره في الوحي، بينما صارت المدينة التي أرادت إخراجه عبرةً للعالمين.

## الفصل العاشر

امْرَأَةُ لُوطٍ: الْقُرْبُ الَّذِي لَا يُنْجِي  
حِينَ يَسْكُنُ الْجَسَدُ بَيْتَ النُّبُوَّةِ وَيَقْبِ الْقَلْبُ مَعَ الْقَوْمِ

ليست امرأة لوط شخصيةً عابرةً على هامش القصة؛ فقد تكرر استثناؤها من النجاة في أكثر من موضع، ثم أخرجها القرآن من سياق قوم لوط وحدهم ليجعلها مثلاً مضروباً للذين كفروا في كل زمان. وهذا الانتقال من الشخصية التاريخية إلى المثل القرآني يعني أن قصتها تحمل قانوناً يتجاوز بيتها وقومها: لا ينجي الإنسان قربه من الصالحين إذا اختار قلبه طريقاً آخر، ولا تغني عنه أشرف الروابط حين يقف بين يدي الله فرداً يحمل عمله واختياره.

قال تعالى:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾.

وقال سبحانه:

﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَائِبِينَ﴾.

كانت من أهل البيت في النسب والسكن، لكنها لم تكن من أهله في حقيقة الإيمان؛ ولذلك تدخل في لفظ الأهل حين يُراد به القرابة، ثم تُستثنى حين يتعلق الأمر بالنجاة. وهذا التفريق يقرر أن الانتماء الإيماني لا يساوي الانتماء العائلي دائماً؛

فقد يجتمع الناس تحت سقف واحد، ويتقاسمون الطعام والعيش والتاريخ، لكن اتجاهات قلوبهم تضعهم في صفوف متباعدة.

كان لوط يتجه بقلبه إلى الله، وكانت امرأته متعلقةً بالقوم. وحين جاءت ساعة الفصل، لم تنشئ تلك الساعة الانقسام، بل أظهرته. العذاب لا يصنع حقيقة الإنسان من العدم، وإنما يكشف الحقيقة التي اختارها طويلاً؛ فكل واحد يُحشر مع من والاه، ويبلغ الطريق الذي ظل يمشي إليه وإن لم يشعر باقتراب نهايته.

الخيانة التي لم تكن خيانة فراش

قال تعالى:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ

عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ

الذَّاخِلِينَ﴾.

ولم تكن الخيانة هنا خيانةً في العرض؛ فبيوت الأنبياء منزهة عن ذلك، وإنما كانت خيانة الدين والرسالة والموقف، إذ لم تؤمنا بما جاء به زوجاهما ولم تحفظا عهد النصرة والولاء للدعوة. كانت امرأة نوح تقف مع المكذبين، وكانت امرأة لوط منتميةً بقلبها إلى قومه، راضيةً بمسارهم، غير مصدقة برسالته.

وهذه الخيانة أشد دلالةً لأنها وقعت في موضع كان ينبغي أن يكون أقرب مواضع النصرة. فالإنسان ينتظر من أهل بيته أن يكونوا سكةً له، وأن يحملوا معه عبء الطريق، فإذا صار البيت نفسه منفذاً يتسرب منه موقف الخصوم، تضاعف

الأم. لقد كان لوط يواجه قوماً في الخارج، وفي الداخل زوجةً لم تتحد معه في حقيقة الطريق.

ولا يخبرنا القرآن بتفاصيل الحياة اليومية بينهما؛ لأنه لا يريد تحويل القصة إلى حكاية أسرية مثيرة للفضول، بل يركز على القضية الفاصلة: كانت تحت عبد صالح، لكنها خانت عهده الديني، فلم ينفعها قربها منه. وما سكت عنه الوحي لا ينبغي أن نملأه بتفصيل لا ثبت به حجة ولا تقوم عليه عبرة.

### ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ﴾

تأمل كيف وصف الله نوحاً ولوطاً: ﴿عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ﴾. جمع لهما شرف العبودية ونعت الصلاح والإضافة إلى الله، ومع ذلك لم تنتقل هذه المنزلة إلى زوجتيهما انتقالاتاً آلياً.

إن الصلاح لا يُورث بالنسب، ولا ينتقل بالمخالطة الجسدية، ولا تكفي الإقامة في رحابه ما لم يفتح الإنسان له قلبه. يستطيع الصالح أن يدعو ويبين ويكون قدوةً، لكنه لا يملك أن يضع الإيمان في قلب أقرب الناس إليه؛ فالهداية بيد الله، وللإنسان اختياره الذي يحاسب عليه.

وفي الآية تسليية مؤلمة لكل داعية ابتلي بأن يرى أقرب الناس إليه لا يستجيبون. قد يظن أن عدم هدايتهم شهادة على تقصيره، فيحمل نفسه ما لا تطيق؛ لكن نوحاً ولوطاً كانا عبدَين صالحين ونبينَ كرمين، ولم ينفع ذلك زوجتيهما لأنهما اختارتا الكفر. ليس معنى هذا أن الإنسان يُعفى من واجبه تجاه أهله، بل أن واجبه هو البلاغ والتربية والقدوة، أما خلق الهداية في القلوب فليس إليه.

وفي المقابل تحمل الآية إنذاراً لمن يغتر بصحبته للصالحين أو انتسابه إليهم؛ فقد يحبهم، ويجلس معهم، ويذكر أسماءهم، ويعيش من هيبتهم في أعين الناس، ثم لا يأخذ من طريقهم شيئاً. قيمة القرب أن يتحول إلى اقتداء، وإلا فقد يصبح حجةً على صاحبه؛ لأنه رأى النور من قريب ثم أعرض.

البيت لا يعني من الاختيار

قد يتوهم الإنسان أن انتماءه إلى أسرة صالحة يمنحه نجاةً مؤجلةً ولو خالف طريقها، أو أن دعاء والديه وصلاح محيطه يكفيانه. لكن القرآن يضع أمامه امرأة لوط ليقول: في الحساب لا يعيش أحد داخل اسم غيره.

البيت يمنح الفرصة، لكنه لا يلغي المسؤولية. قد يهين الإيمان، لكنه لا يفرضه. وفي هذا تكريم للإنسان وتحمل له في الوقت نفسه؛ فهو ليس مجرد نتيجة حتمية لبيئته، بل صاحب قرار يستطيع أن يقبل أو يرفض. ولو كانت البيئة تجبر القلوب، لآمنت امرأة لوط، ولكفر كل مؤمن يعيش بين الكافرين.

وقد عرض القرآن في السورة نفسها نموذجين مضادين؛ فضرب للذين آمنوا مثل امرأة فرعون، التي عاشت في بيت طاغية ولم يمنعها القرب منه من اختيار الله، وضرب للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط، فلم ينفعهما القرب من نبين. وهكذا تتحرر المسؤولية من سلطان البيئة: لا بيت النبوة يجبر على الإيمان، ولا بيت الطغيان يجبر على الكفر.

ليست القضية أين يسكن جسدك، بل أين يسكن قلبك. قد تكون في قصر فرعون وقلبك مع الله، وقد تكون في بيت لوط وقلبك مع القوم.

﴿كَانَتْ مِنَ الْغَايِينَ﴾

تكرر وصفها بأنها من الغابرين. والغابر هو الباقي المتخلف بعد مضي غيره؛ بقيت مع القوم حين خرج الناجون، أو كانت من الذين قُضي ببقائهم في العذاب.

وفي الكلمة مفارقة دقيقة: قد يظن الإنسان أن البقاء في المكان ثبات وأمان، وأن المغادرة خسارة؛ لكن البقاء قد يكون هو الهلاك، والخروج قد يكون النجاة. لم تكن قيمة الموقف في أن تبقى أو ترحل، بل في الصف الذي تنتمي إليه.

خرج لوط وأهله المؤمنون في ظلمة الليل، وقد يبدو الخارج في أعين الناظر فاقداً لبيته وأرضه؛ وبقيت امرأته مع القوم في القرية التي تعرفها. لكن الخارجين كانوا يمشون إلى الحياة، والباقيين ينتظرون الصبح الذي يطويهم.

إن التعلق بالمألوف قد يجعل الإنسان يختار موضع الخطر لأنه يعرفه، ويرفض طريق النجاة لأنه جديد. والإيمان يطلب منه أحياناً أن يترك المعلوم الفاسد إلى الجاهل الذي تكفل الله به. لم تكن امرأة لوط قادرةً على الانفصال القلبي عن القوم، فكان بقاؤها الجسدي نتيجةً لذلك الارتباط الأعمق.

الولاء الذي يحسم المصير

لم تكن امرأة لوط هي التي قادت الفاحشة أو وقفت بالضرورة في مقدمة الجموع، لكن ولاءها كان مع أهلها. وهذا يكشف أن الإنسان قد يشترك في مصير جماعة لا لأنه باشر كل أفعالها، بل لأنه رضي بطريقتها ونصره وخان الحق الذي بلغه.

والرضا القلبي ليس أمراً هيناً؛ فهو الجذر الذي تنبت منه المواقف عند الامتحان. قد يصمت الإنسان زمناً، فإذا جاءت لحظة الفصل انحاز إلى الجهة التي ظل يحبها في داخله. وحين تشتد الأزمات، لا يتسع الوقت لصناعة ولاء جديد؛ يظهر ما كان مخزوناً.

ومع ذلك ينبغي الحذر من الحكم على قلوب الناس؛ فهذا الله وحده. نحن نحكم على الظاهر، ولا نملك أن نعين مصير أحد بظنوننا. لكن القصة تعلم الإنسان أن يفتش هو في ولائه: مع من يفرح؟ ولمن يمتن الغلبة؟ وهل تؤله معصية الله أم يؤله إنكار الناس لها؟ وهل يدافع عن الحق لأنه حق، أم يبدل موقفه بحسب الجماعة التي يريد رضاها؟

نهاية القرابة عند باب الحساب

قال تعالى:

﴿فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

إنها عبارة تقطع كل وهم بالوساطة التي لم يأذن الله بها. لم يغن نوح عن امرأته، ولم يغن لوط عن امرأته، مع عظيم منزلتهما؛ لأن كل نفس تأتي ربه بما كسبت.

ولم يقل: لم يغنيا عنهما كثيراً، بل ﴿شَيْئًا﴾؛ نكرة في سياق النفي تفيد العموم. لا يستطيع النبي أن يدفع شيئاً من حكم الله عمن أصر على الكفر، إلا ما أذن الله فيه من الشفاعة لمن ارتضى. فإذا كان هذا حال القرابة من الأنبياء، فما أضعف تعلق الناس بالأسماء والجماعات والأنساب ظناً أنها تعوضهم عن العمل!

إن الانتساب إلى الصالحين شرف إذا حمل صاحبه على السير وراءهم، وقد يصبح حجة عليه إذا اتخذ الاسم ستاراً للتقصير. والله لا يسأل المرء عن الاسم الذي رفعه، بل عن الحق الذي اتبعه.

﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾

جاء الحكم: ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾. لم تستثنهما صلتها بالنيين، بل دخلتا مع الجماعة التي اختارتا طريقها.

وكلمة ﴿مَعَ﴾ تعيدهما إلى الصحبة الحقيقية؛ كانتا في الدنيا تحت عيدين صالحين مكاناً، لكنهما كانتا مع الكافرين موقفاً، فظهر يوم الحساب معنى المعية الذي اختارته القلوب. الصحبة الحقيقية ليست دائماً من يشاركك السقف، بل من تشاركه الوجهة.

ومن هنا لا تصبح امرأة لوط فصلاً عن امرأة واحدة، بل امرأة لكل من يعيش على رصيد غيره الروحي، ويظن أن قربه من أهل الخير يغنيه عن مجاهدة نفسه. قد يستضيء المرء بنور الآخرين زمناً، لكن عليه أن يحمل في قلبه قبساً خاصاً به حين يبدأ طريق الحساب.

مأساة المعرفة التي لا تتحول إلى إيمان

ربما لم يكن في قوم لوط أحد أقدر من امرأته على معرفة صدقه في حياته الخاصة؛ فالبيت يكشف ما لا تكشفه المنابر، وهي ترى ثباته حين يغيب الجمهور، وتعرف طهره وأمانته. ومع ذلك لم تتحول المعرفة إلى تصديق.

وهذا يبين أن المشكلة ليست دائماً نقص الأدلة؛ قد تكون الحقيقة قريبة جداً، لكن الهوى يضع بين القلب وبينها جداراً. المعرفة تحتاج إلى تواضع أخلاقي يسمح للإنسان بأن يغير نفسه بناءً عليها، وإلا بقيت معلومة محاصرة لا تنشئ هداية.

كم من إنسان يعرف أن الطريق خطأ، لكنه لا يريد دفع ثمن مغادرته! يعرف صدق الناصح، لكنه يخشى الجماعة التي سينفصل عنها. يعرف الحق، لكن مصالحه أو

روابطه أو عاداته تشده إلى غيره. وهنا لا يكون الجهل غيباً للعلومة، بل عجز الإرادة عن الوفاء بما علمته.

كانت امرأة لوط قريبةً من الخبر، لكنها بعيدة عن الاستجابة. وامرأة فرعون كانت بعيدةً في الظاهر عن بيئة الإيمان، لكنها رفعت قلبها إلى السماء وقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾. فقرب القلب غلب بُعد المكان، وبعد القلب أبطل قرب البيت.

لوط بين ألم الرسالة وألم البيت

لا يفصل القرآن لنا مشاعر لوط تجاه مصير امرأته، لكن الطبيعة البشرية تجعل الفقد داخل البيت ألماً لا يشبه غيره. لقد كان يواجه قومه وهو يحمل في منزله انقساماً صامتاً، ولم يكن هذا ليزيده إلا افتقاراً إلى الله.

وكم يكون الداعية محتاجاً إلى اللطف حين يتتلى في أقرب الناس! إنه يملك الحق لكنه لا يملك القلب، ويملك الكلمة لكنه لا يملك ثمرتها. وقد يدفعه الحزن إلى الإفراط في لوم نفسه أو إلى القسوة على من لم يستجب، لكن قصص الأنبياء تعلمه أن يؤدي ما يستطيع، ويدعو، ويصبر، ثم يسلم أمر القلوب لله.

ليس كل فشل في الاستجابة فشلاً في البلاغ، وليس كل قريب لم يهتد دليلاً على فساد المربي. قد يجتمع البيان الكامل مع الاختيار الرافض؛ لأن الله أراد للإنسان أن يكون مسؤولاً، لا آله تستجيب قسراً.

آخر درس من داخل البيت

تختصر امرأة لوط حقيقة لا ينبغي أن تغيب بعد كل ما رأيناه من القرى والعذاب: المعركة الأخلاقية لا تقع في الشوارع وحدها، بل تبدأ في القلب، وقد تعبر أبواب البيوت. يمكن للإنسان أن يعيش بجوار الحقيقة ولا يسكن فيها، وأن يسمع الوحي ولا يطيعه، وأن يعرف الطريق ثم يختار الجماعة.

ولهذا لا يكفي أن نحفظ قصة لوط أو ندافع عن حكمها؛ علينا أن نسأل عن مقدار دخولها في قلوبنا. فقد يعلن المرء رفضه لفاحشة قوم لوط، ثم يحمل من أخلاقهم شيئاً آخر: يقطع سبيل الناس، أو يؤذي ضيفه، أو يسخر من الطاهرين، أو يتبع الجمهور، أو يعاند النصيحة، أو يأمن العاقبة. وعندئذ يكون قد ابتعد عن صورة القصة واقترب من بعض قوانينها.

إن الآيات لا تطلب منا أن نتصر عليها في الجدل، بل أن نسمح لها بأن تنتصر داخلنا؛ فتنظم الرغبة، وتصون الحرمه، وتوقظ الرشد، وتحررنا من ضغط الجماعة، وترد قلوبنا إلى الله.

## الفصل الحادي عشر

مَا الَّذِي تَقُولُ قِصَّةُ لُوطٍ لِلْإِنْسَانِ؟  
الْفِطْرَةُ وَالْحَرِيَّةُ وَالْحُدُودُ وَمَسْئُولِيَّةُ الْإِخْتِيَارِ

ليست قصة لوط عليه السلام حكايةً عن جسد الإنسان وحده، بل عن مرجعيته كلها؛ من يحدد له معنى الخير؟ ومن يضبط حركته حين تتعارض الرغبة مع الهداية؟ وهل الحرية أن يفعل كل ما يشتهي، أم أن يملك نفسه فلا تستعبده شهوة ولا جماعة ولا عادة؟

لقد كشفت القصة أن الإنسان قد يفقد حريته في اللحظة التي يظن فيها أنه أطلقها؛ فقوم لوط أطلقوا الشهوة من حدودها، فانتهاوا ﴿يَهْرَعُونَ﴾، كأن قوة تسويقهم لم يعودوا قادرين على التوقف عند صوت نبي، أو حرمة بيت، أو حق ضيف، أو خوف عاقبة. كانت الشهوة في البداية مطلباً، ثم أصبحت قائداً، ثم تحولت إلى سجين.

الحرية الحقيقية ليست غياب الحدود، بل القدرة على اختيار الحق حين تدعو النفس إلى غيره. والذي لا يستطيع أن يقول لرغبته «لا» ليس سيداً لنفسه، وإن سمي خضوعه حرية. العبودية لله وحدها تحرر الإنسان من العبوديات الصغيرة؛ لأنه حين يجعل أمر الله فوق هواه يسترد موقعه قائداً لقواه، لا مقوداً بها.

الْفِطْرَةُ لَيْسَتْ رَغْبَةً عَابِرَةً

تقوم القصة على معنى الفطرة؛ على أن خلق الذكر والأنثى وتوجيه العلاقة بينهما ليس ترتيباً اعتبارياً، بل جزء من بنية الإنسان واستمرار الحياة. ولذلك ربط لوط إنكاره بقوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾.

والفطرة ليست كل ما يجده الفرد في نفسه من إحساس؛ فقد يجد دوافع متعارضة، وبعضها ثمرة تربية أو عادة أو ابتلاء. الفطرة هي الأصل الذي خلق الله الإنسان عليه، والوحي هو النور الذي يكشفها ويحميها من التبدل. فإذا احتج كل دافع بأنه فطرة لم يبق للفطرة معنى، وصارت الكلمة اسماً لكل ما تريده النفس.

ولا يعني ذلك إنكار تعقيد التجربة الإنسانية أو الاستهانة بمن يخوض صراعاً داخلياً؛ فقد يكون الابتلاء شديداً، ويستحق صاحبه الفهم والعون والستر. لكن الاعتراف بثقل الابتلاء شيء، وتغيير حكم الفعل شيء آخر. إن رحمة الإنسان بالمبتلى تكون في مساعدته على الطاعة، لا في إقناعه بأن المجاهدة بلا معنى.

والله لا يؤاخذ الإنسان على ما لم يختره من خواطر عارضة، وإنما على ما يعقد عليه قصده ويباشره باختياره، وهو سبحانه أعلم بضعف عباده وعدله ورحمته. وكل مجاهدة صادقة يعلمها الله، وكل ترك للحرام من أجله عبادة قد لا يطالع عليها أحد.

الحد رحمة لا خصومة

قد يرى الإنسان الحد قيماً على رغبته، لكن قصة لوط تكشف ما يقع حين تزال الحدود كلها. لم يتحول القوم إلى أفراد أكثر سعادةً وسلاماً، بل إلى جماعة تقطع السبيل، وتمارس المنكر في النادي، وتحاصر البيوت، وتنتهك الضيافة.

فالحدود لا تحمي صاحبها وحده، بل تحمي الآخرين منه؛ تحمي الضعيف من قوة القوي، والضعيف من شهوة المعتدي، والأسرة من التفكك، والطريق من الخوف، والمجتمع من أن يتحول إلى ساحة تنصارع فيها الرغبات بلا ميزان.

ومن هنا لا تكون الأخلاق مسألة شخصية محضة؛ لأن الإنسان لا يعيش وحده، وما يكرهه في الخفاء يعيد تشكيله، وما يجاهر به يؤثر في الحس العام، وما يحوله إلى ثقافة ينتقل إلى الأجيال. هناك فرق بين الستر على فرد ابتلي بذنب، وبين ترك نظام اجتماعي يزين العدوان ويعاقب من ينكره.

لا شرعية للكثرة حين تخالف الحق

كان لوط فرداً في مواجهة قوم، وآل لوط بيتاً واحداً في القرى. ومع ذلك لم يجعل القرآن العدد ميزاناً للحقيقة. إن اتفاق الناس قد يفيد في تدير شؤونهم، لكنه لا يغير حقائق الوحي والفطرة.

ولو كانت الكثرة تنشئ الحق بذاتها، لكان الأنبياء مخطئين في بداية دعواتهم؛ فقد جاء أكثرهم إلى أقوام تواطؤوا على عقائد وعادات موروثة. إن قيمة الرسالة أنها تمنح الإنسان معياراً خارج ضغط اللحظة، فيستطيع أن يراجع المجتمع بدل أن يكون مجرد نسخة منه.

وهذا لا يبرر التعالي على الناس أو احتقار آرائهم؛ فالإنسان يحتاج إلى الشورى والنقد وتصحيح فهمه. لكنه يفرق بين مسألة اجتهادية تحتل الآراء، وحكم ثابت لا تغيره رغبة الجمهور. التواضع العلمي لا يعني أن يصبح الوحي تابعاً للاتجاه الغالب.

المصلح ليس عدواً للمجتمع

صوّر قوم لوط نبيهم وآله كأنهم مشكلة ينبغي إخراجها، مع أنهم كانوا آخر من يريد لهم النجاة. وهذه عادة تتكرر حين يرى المجتمع في الناقد تهديداً لراحته، فيتهمه بأنه يكره الناس أو يريد التحكم بهم.

لكن المصلح الصادق ينكر لأنه يحب بقاء المجتمع لا لأنه يتنى سقوطه. لو كان لوط يكره قومه لما صبر على دعوتهم، ولما عرض عليهم طريق الطهر، ولما سأل عن رجل رشيد بينهم. وقد رأينا إبراهيم يجادل فيهم حلماً ورحمةً.

ليس كل من يحذر من النار عدواً لمن يحذره؛ قد يكون أصدق الناس رحمةً به. والرحمة ليست في أن تترك الإنسان يمشي إلى الحافة بلا كلمة، بل في أن نصدقه النصيحة مع حفظ كرامته.

#### الكرامة لا تفصل عن المسؤولية

كرّم الله الإنسان بالعقل والاختيار والتكليف. ومن تمام الكرامة ألا يُعامل ككائن عاجز عن ضبط نفسه أو مراجعة رغباته؛ فالقول إن الإنسان لا يستطيع إلا أن يطيع ما يشعر به يسلبه مسؤوليته تحت ستار الرحمة.

إننا نحترم الإنسان حين نؤمن بقدرته—بإعانة الله—على المجاهدة والتوبة والنمو، وحين لا نختصره في ماضٍ أو ميل. أما تحويل كل دافع إلى قدر نهائي فلا يحره، بل يحبسه في تعريف ضيق لنفسه.

وقصة لوط تقول إن الإنسان مسؤول عن الاتجاه الذي يمنحه لدوافعه، وإن التكرار يصنع شخصيته، وإن المجتمع مسؤول عن اللغة والقيم التي يربي بها أبناءه.

لا يجوز أن تتحول القصة إلى ذريعة للظلم

كما لا يجوز تعطيل الحكم الأخلاقي الواضح في القصة، لا يجوز كذلك استعمالها لتبرير الاعتداء أو الإهانة أو التجسس أو سفك الدماء. إن قوم لوط أخذوا بأمر إلهي بعد إرسال نبي وتمام حجة، وليس في القصة تفويض للأفراد أن ينصبوا أنفسهم قضاة على الناس.

للمسلم أن يبين حكم الله بالحكمة، وأن يدعو إلى العفة، وأن يحمي مجتمعه من العدوان بالوسائل المشروعة، لكن ليس له أن يظلم أو يعتدي أو يفتش في خصوصيات الناس. والعقوبات من شأن القضاء والسلطة الشرعية المستوفية للشروط، وليست حقاً للأفراد الغاضبين.

إن مقاومة المنكر لا تكون بمنكر آخر، والغيرة على حدود الله لا تصح إذا تجاوزت حدود الله. ومن أساء إلى إنسان أو ظلمه باسم الدين فقد خالف العدل الذي جاء به الدين.

والباب الذي ينبغي أن يبقى مفتوحاً دائماً هو باب التوبة؛ فالله الذي قص عذاب المصريين هو الذي قال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾. ولا يملك أحد أن يمنع عن تائب رجاء ربه، أو يجعل خطأه الماضي هو اسمه الأبدى.

### الطهارة مشروع كامل

لم تكن طهارة آل لوط امتناعاً عن فاحشة واحدة فحسب، بل انتماء إلى منظومة كاملة: إيمان بالله، وحفظ للفطرة، وصيانة للضيف، وإنكار للعدوان، واستجابة لأمر الخروج. وكذلك الطهارة التي يريدها القرآن ليست مظهرًا جزئيًا يختبئ خلفه الظلم والكبرياء، بل نقاء في العلاقة بالله والناس والنفس.

قد ينكر الإنسان فاحشة قوم لوط ثم يظلم العامل الضعيف، أو يخون الأمانة، أو يقطع سبيل الناس، أو يأتي المنكر في مجلسه بصورة أخرى؛ وعندئذ لم يأخذ من القصة إلا الجزء الذي يسهل عليه توجيهه إلى الآخرين.

إن القرآن يعيد القارئ إلى نفسه؛ فمن السهل أن يقف مع لوط في نهاية القصة بعد أن عرف العاقبة، لكن الامتحان أن يقف معه في أولها حين يكون وحده، وأن يحمل أخلاقه كلها: وضوحه، وعفته، ورحمته، وشجاعته، وحمائه للضعيف، وتسليمه لله.

### النجاة تبدأ قبل مجيء العذاب

نجا لوط لأنه عاش قبل ليلة الخروج في صف النجاة. لم يصنع الإيمان عند سماع الأمر، بل كان الأمر خاتمة حياة من الثبات. وكذلك الهلاك لم يبدأ عند الصبح؛ كان القوم يصنعونه بفعلهم كل يوم.

فالنجاة ليست قراراً طارئاً يؤجل الإنسان الاستعداد له حتى يرى العلامات الكبرى. إنها عادات صغيرة: غض بصر، وصدق توبة، ومفارقة مجلس منكر، وحفظ حق، ونصرة مظلوم، وقول كلمة رشد، وعدم الاعتزاز بالكثرة.

وكل طاعة تهيئ الإنسان للاستجابة حين يأتي أمر الله، كما أن كل استجابة للهوى تجعل الانفصال عنه أصعب. لا يعرف المرء أي فعل صغير سيصبح حجراً في طريق نجاته، ولا أي تساهل متكرر قد يصنع قيداً يعجز عن كسره.

### الصبح قريب

من أرق عبارات القصة وأشدّها ثبوتاً:

## ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

قالت للوط وهو في شدة الليل، لكنها لا تزال تقول لكل قلب يثبت على الحق وهو يرى الباطل متكاثراً: لا تحكم على القصة من منتصف الليل. قد تبدو الجموع قوية، وقد يكون صوتك ضعيفاً، وقد تضيق بك الأسباب، لكن الله لا يغيب عن المشهد.

ولا يعني قرب الصبح أن كل محنة ستنتهي بالطريقة التي يتخيلها الإنسان أو في الوقت الذي يختاره؛ فقد يكون الصبح نصراً في الدنيا، وقد يكون ثباتاً حتى الموت، وقد يكون الجزء الكامل في الآخرة. لكن المؤكد أن الليل ليس أبدياً، وأن ما عند الله هو الحقيقة الباقية.

كان لوط يمتنى ركباً شديداً، وكان يأوي إليه فعلاً وإن لم تره عيناه. وهذا هو اليقين: أن تعلم أن عون الله حاضر قبل أن ترى صورته، وأن تمضي في الطاعة قبل أن تنكشف لك نتيجة الطريق.

## الخاتمة

حِينَ تَنْجُو الْفِطْرَةَ وَإِنْ خَرَجْتَ وَحِيدَةً

بدأت قصة لوط عليه السلام بسؤال:

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ؟﴾

وانتهت بآية باقية تسأل العابرين:

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟﴾

وبين السؤالين انكشفت رحلة مجتمع كامل، كيف يبدأ الانحراف رغبةً تنفصل عن الهداية، ثم يصير فعلاً، ثم عادةً، ثم مجاهرةً، ثم منكراً في النادي، ثم قوةً تقطع السبيل، ثم نظاماً يطرد الطاهرين ويحاصر بيت النبوة، ثم غروراً يتحدى الله أن يأتيه بالعذاب.

ولم تكن نهاية القوم منفصلةً عن بداياتهم؛ فالقرية التي جعل عاليها سافلها كانت قد قلبت الموازين قبل أن تنقلب أرضها، والحجارة التي أمطرت عليها جاءت بعد أن رجمت الطهارة بالسخرية، والصبيحة التي أسكتتها جاءت بعد أن ملأت مجالسها بأصوات المنكر، والعمى الذي أصاب المعتدين عند الباب جاء بعد عمى طويل عن حرمة الإنسان والضيف والفترة.

وفي الجهة الأخرى وقف لوط، لا يملك العدد ولا العشيرة ولا القوة الظاهرة، لكنه كان يحمل ما افتقدته المدينة كلها: ميزاناً لم ينقلب. ظل يعرف المعروف معروفاً

والمنكر منكراً، ولم يسمح للعادة أن تخدر فطرته، ولا للكثرة أن تترك يقينه، ولا للعدوان أن يفسد أخلاقه.

كان واضحاً فلم يداهن، ورحيماً فلم يتشَفَّ، وصابراً فلم يستعجل، وشجاعاً فلم يفتح الباب، وبشراً فضاق ذرعاً وتمنى القوة، ونبيّاً فلم يفقد ركنه بالله. وحين جاء الأمر خرج في الليل، لكنه لم يكن هارباً من رسالته؛ كان قد أتمها. خرج من المدينة ولم تخرج المدينة منتصرةً عليه؛ فقد أخذ معه الطهارة والنجاة، وتركها لمصير صنعته بيديها.

وأثبتت القصة أن البيت لا يخو باسمه؛ فقد كانت امرأة لوط أقرب الناس مكاناً وأبعدهم موقفاً، فلم يغن عنها قربها من النبي. وأثبتت كذلك أن الغربة لا تضر صاحبها إذا كان مع الله؛ فقد كان في القرى بيت واحد من المسلمين، لكنه كان أثقل في ميزان الحق من المدن كلها.

إن العبرة الكبرى ليست أن نسأل أين كانت قرى لوط فقط، بل أن نسأل أين تقف موازيننا نحن: هل ما تزال الرغبة محكومةً بالهداية، أم بدأت تطالب بأن تكون هي المشرّع؟ هل مجالسنا تحفظ الحياء أم تخفف قبح المنكر؟ هل نحجي الغرب والضعيف، أم نستخدم قوتنا في إذلالهما؟ هل نستمع إلى الرجل الرشيد، أم نطرده لأنه يزجج إجماعنا؟ وهل نقرأ الإمهال رحمةً تدعونا إلى التوبة، أم أماناً كاذباً يدعونا إلى مزيد من الجراءة؟

وليس المقصود أن يعيش المؤمن مترصداً للناس، موزعاً عليهم أحكام الهلاك؛ بل أن يكون أول من يخاف على نفسه، وأسرعهم إلى التوبة، وأرحمهم بالمبتلى، وأوضحهم في الحق، وأبعدهم عن الظلم. فلو ط عليه السلام لم يكن صياد خطايا، بل نبي نجاة؛

ظل يفتح لقومه طريق الطهر حتى أغلقوه، ويطلب فيهم رجلاً رشيداً حتى لم يجد،  
ويحجي ضيوفه حتى كشفت السماء له عن حمايتها.

إن القصة لا تعلمنا كراهية الإنسان، بل كراهية ما يهدم إنسانيته، ولا تعلمنا إنكار  
وجود الصراع في النفس، بل تعلمنا أن الصراع ميدان عبودية، وأن المرء يستطيع  
بعون الله ألا يحول ابتلاءه إلى راية، ولا ضعفه إلى شريعة، ولا رغبته إلى إله.

وما دام القلب حياً، فطريق الرجوع مفتوح. قد يكون الإنسان قد قطع خطوات  
في طريق القوم، لكن التوبة تستطيع أن تغير الوجهة قبل مجيء الصبح. ليست العبرة  
بألا يكون للمرء ماضٍ يؤلمه، بل ألا يصير على ماضٍ يعرف أنه يبعده عن الله. وليس  
الظاهر من لم يُبتل قط، بل من كلما أصابه غبار الطريق عاد إلى الماء، وكلما زلت  
قدمه رفض أن يبني من زلته بيتاً.

هكذا تبقى قصة لوط شديدة الحضور؛ لأنها قصة الحدود التي تحفظ الإنسان،  
والرغبة حين تتمرد عليها، والجماعة حين تصنع من التكرار حقيقةً زائفة، والمصلح حين  
يقف وحيداً، والبيت حين ينقسم، والرحمة حين تنذر، والعدل حين يحسم، والنجاة  
حين تأتي في صورة خروج ليلي لا يلتفت صاحبه وراءه.  
لقد مضى القوم، وبقي السؤال:

﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ؟﴾

وبقيت الطمأنينة:

﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ؟﴾

وبين السؤال والطمانينة تتحدد مهمة المؤمن: أن يكون ذلك الرشيد الذي لا تأخذه  
سكرة الجماعة، وأن يمضي في ليل الفتنة واثقاً بأن الصبح قريب، وأن يأوي إلى الركن  
الشديد حين تنقطع الأركان، وأن يحفظ في قلبه فطرةً قد تضيق بها مدينة، لكنها  
عند الله أوسع من المدينة وأبقى.

فقد تسقط القرى، وتطوى الأزمنة، وتندثر الأسماء، لكن الموقف الصادق لا  
يندثر. بقي لوط عليه السلام لأنه وقف حيث ينبغي أن يقف، وبقي قومه عبدةً لأنهم  
أصروا على السير إلى حيث لا ينبغي للإنسان أن يسير.

وآخر ما تقوله القصة للقلب:

لا تغتر بكثرة السائرين إذا كانت الطريق تنتهي إلى الهلاك، ولا تستوحش من قلة  
الرفاق إذا كان الله معك، ولا تجعل تأخر الصبح يوقعك في الشك؛ فما من ليل يطول  
على وعد الله، وما من طاهر يفقده الله لأنه صار غريباً، وما من خطوة تمضي بها إليه  
إلا وهي خروج من قرية الهلاك إلى أرض النجاة.

﴿نَجِّنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۖ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَايِنِ ۚ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ۖ وَأَمْطَرْنَا  
عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۚ  
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝﴾

العزیز الذي لا يعجزه المفسدون، والرحيم الذي ينذرهم قبل أن يأخذهم، وينجي  
المؤمنين حين تنقطع بهم الأسباب.

وبين العزة والرحمة قامت قصة لوط كلها؛ فلا الرحمة ألغت العدل، ولا العزة  
أغلقت باب الرجوع. والحمد لله رب العالمين.